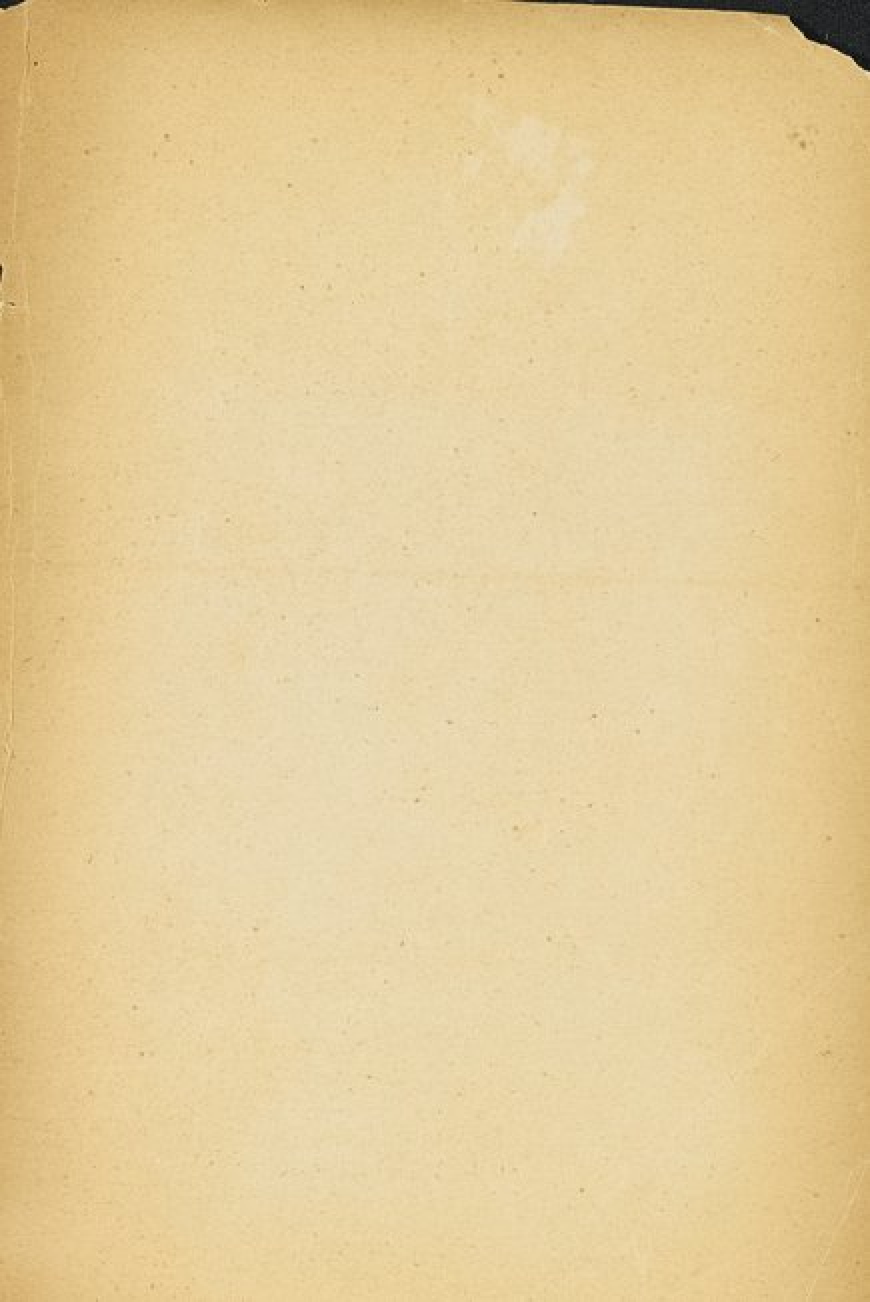
شارل عيساوي

فايز صايغ

الطائفية

منشورات مكتبة الواجب



الطائفية

بحث في اسبابها واخطارها وعلاجها

بقلم

فايز صايغ

استاذ علوم في الفلسفة

منشورات مكتبة الواجب


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
DUPL
32101 038637060

الى من اوصى الي بهذا الكتاب

للمؤلف

اجتماعية

الهدف	ديسمبر ١٩٤٤	نفذت طبعتها الاولى واعيد طبعها في « البعث القومي »
الطالب القومي	ديسمبر ١٩٤٤	
الاصلاح	ابريل ١٩٤٥	
البعث القومي	ابريل ١٩٤٦	
الطائفية	فبراير ١٩٤٧	

سياسية وحزبية

القضية الفلسطينية	سبتمبر ١٩٤٥
The Palestine Problem	مارس ١٩٤٦
الاعتقال الاول	اكتوبر ١٩٤٦
مشروع سوريا الكبرى	ديسمبر ١٩٤٦

توطئة

شعب ممزق مجزأ ، حتى لكأنه استحال الى شعوب ؛ وامة تفسخت حتى لكأنها مجموعة امم متعادية ؛ وحواجز انتصبت وسط دورة حيـــاة الشعب : فبعثرت الشعب ، وحدت من طلاقة تفاعله ؛ وجعلته فئات فئات ، انكمشت كل منها على نفسها ، في انانية حقود ، وجفـــاء مسموم ، وكراهية للغير فنائية ...

ذلك الشعب شعبي ، وشعبك ايها القاريء !

وتلك الحواجز ، حواجز الطائفية ...

. . .

تلمسها في شتى مظاهر الحياة ، وكافة نواحيها وزواياها .

تلمسها في اعماق النفوس : راسخة في الضمائر ؛ متبدية في التصرفات ؛ متناقلة في الهمس ، وفي التربية ؛ متسربة بالعدوى ؛ مستمرة بقوة الاستمرار .

وتلمسها في القوانين والنظم : منبثقة عن الحالة النفسية ؛ وعاملة ، في الوقت عينه ، على تغذية هذه الحـــالة النفسية واستدامتها والاستزادة من تأصلها .

وتلمسـها في المنظمات والمؤسسات ... وتلمسها في الكتابات والمنشورات ...

وتلمسها سلاحاً للاجنبي : مطية تسرب بهـــا الى عقر دارنا ؛ ووسيلة استعملها لترسيخ اقدامه ، واستدامة عوامل بقائه ؛ واسلوبا ما برح يلجأ اليه لبعث الحنين اليه ، بعد ان غـادر البلاد بموظفيه ، وجلا عن الوطن بجيوشه ، وتبدد نفوذه الرسمي ، وطوي علمه – وما زال يطمح الى العودة على الاقل من النافذة ، بعد ان طرد من الابواب !

وتلمسها وسيلة للمنـاورات والمؤامرات السياسية يقوم بها ابنـــاء البلاد انفسهم ، يوم تطمح فئة منهم بالسيطرة والاستئثار ،فتلجأ الى الطائفية سلاحاً ، وترتكز عليها مستنداً . . .

—١—

مظاهر الطائفية

هذه هي الطائفية ، المتأصلة في اعماق هذا الشعب .

وهي ، في وضعها الحالي ، وفي مدى تأصلها في حيـاة الشعب ، والدولة ، والامة بكاملها، ليست بمجهولة او خفية . ولا حاجة ، في الواقع ، للتبسط في وصفها وتبيان مـــدى انتشارها .

ولا داعي ، ايضاً ، لبحث نشأتها التاريخية ، والاوضاع والظروف التي ادت الى نشوئها وانتشارها .

فالامر المهم هو ان نتنبه الى واقعها ؛ ونعي مظاهره ؛ وندرك الزوايا التي تطل الطائفية فيها – كمقدمة للخوض في بحث فلسفة الطائفية ومافي هذه الفلسفة من اخطاء واخطار.

...

(١) تتبدى الطائفية ، في المقـــام الاول ، في النفسية الشعبية : في ضمائر الافراد وعقولهم واذهانهم ، ونظراتهم الى الحياة ، ومقولات تفكيرهم . هنا مقرها الرئيسي ، وهنا خطرها الاكبر . فلو لم تكن هنا ، لما استطاعت القوانين ، حتى تلك القوانين التي فرضها الاجنبي ، ان تدوم او تلقى تأييداً ، بل تشبثاً ببقائها ، من قبل الشعب . ولو لم تكن هنا ، لما نشأت المؤسسات المرتكزه عليها في الاساس. ولو لم تكن هنا ، لما استمرت ، وانتقلت من جيل الى جيل ، وتمتعت باستدامة طويلة الاجل !

هنا مقر الطائفية الاول : ولو لم يكن الامر كذلك ، لمـــا استقرت الطائفية في زوايا حياتنا الاخرى ، شعبـاً ودولة . وما بروز الطائفية في سائر ميادين حياتنا القومية ، سوى صدى لاستقرارها في هذا المجثم الاول : في نفسية الافراد ...

وهي تتبدى هنا نفوراً وجفاء : لا تلمسهـــا اليد ، ولا تراها العين ، ولا تسمع همساتها الاذن : لكنها تفعلان ، وتفعلان في مأمن من التأثر بالعوامل المعاكسة .

نفور وجفاء ، يسمان جو العلاقـــات بين ابناء الوطن الواحد ، ويولدان الشك المتبادل ، والتحسب المتبادل ، والقلق المتبادل ...

وينبثق عن هذا الوضع عداء — عداء مكبوت ، مخنوق ، لكنه متحفز للانفجار في اول فرصة ، ولاقل سبب ...

هذا هو الجو الخانق — من الجفـــاء والنفور والشك والعداء — تتبادله الطوائف ، فتزيد بتبادله في تأصله — هذا هو الجو الذي يعيش فيه الطفل وينمو ، ويفعل فيه المواطنون ويتفاعلون .

...

(٢) وتتبدى الطائفية ، بالتالي ، في الحياة الشعبية ، نتيجة لبروزها في النفسية الشعبية .

فتنكمش الطوائف على نفسها : تحد من تفاعلها المتبادل ، وتنحصر علاقاتها ، او تكاد ، في نفسها ... وتنشأ في المجتمع الواحد مجتمعات مختلفة ، منفصلة ... وتقوم في كل مجتمع من هذه المجتمعات الصغرى حياة خاصة ... فتنشأ وتتبلور ، مع مرور الزمن ، عادات واساليب في الحيـــاة ومفاهيم ومقاييس ، تتباين فيما بينها وقد تتنافر .

وهكذا : فبدلا من الاختلاط الطليق ، والتفـــاعل المتحاب المنفتح ، تسود انغلاقية وانكماشية تفسخان وحدة المجتمع ، وتنمو عادات وتقاليد متباينة ، تجعل بدورهـــا

الاختلاط اصعب واقل امكانية وابعد احتمالا .

. . .

(٣) وينعكس هـــذا الوضع النفسي الاجتماعي في المؤسسات : والمؤسسات مرآة المجتمع ، تعبر عن ارادات فئاته ، وتجسد المصالح المختلفة التي تلعب دورها في حياته .

فما المنظمات والمؤسسات تنشأ ، في معظم الحـالات ، على الاسس الطائفية ، وللغايات الطائفية : وتنتشر كل منها ضمن الطائفة التي نشأت لخدمتها . فاذا بها تكتلات طائفية تعكس لنا ، بشكل ملموس بين ، النزعات الطائفية المهيمنة في نفوس الفئات .

* * *

(٤) وتنعكس هذه الاوضاع ايضاً ، من ناحية اخرى ، في نظم الدولة — في الادارة والقضاء ، وفي مفاهيم الحقوق المدنية والواجبات ، والاسس التي تنسق بموجبها عـلاقات الافراد وتحدد بموجبها امتيازاتهم وصلاحياتهم .

فادارات الدولة واجهزتها وملاكاتها ، مهما ارتفع شأنها او انخفض ، مجال رحب للطائفية :

فالنسبة العددية للطوائف ، لا الكفاءة الشخصيـــة والمؤهلات التخصصية ، هي التي تقرر الموظفين ... والتوازن بين مصالح الطوائف ورغباتها ، لا التوازن بـين المصالح الاساسية الثابتة المنبثقة عـن الاوضاع الاجتماعية الاصيلة ،

هي التي تقرر السياسات والاعمال .

والحقوق المدنية ، والواجبات ، لا تتساوى بين كافة المواطنين ؛ والمحاكم المذهبية تجسد هذه اللامساواة في ابرز شكل ، وتسجلها عاراً على الامة ولطخة في جبين الاستقلال ! والاحوال الشخصية هي ، بالحقيقة ، احوال لا شخصية — احوال تفرضها على الشخصية اوضاع الوراثة — وراثة الدين والمعتقد !

وعلى العموم : فان حياة الدولة والمواطنين تدور في جو متباين المقاييس ، متنافر الاسس ، تقضي على المساواة في الواقع ، وتقضي على امكانية المساواة كمطمح ، بل كشرط للرقي !

ومتى انعدمت المساواة في اسس الحياة — في الحقوق والواجبات — ونظم الاحوال الشخصية واساليب العلاقات بين المواطنين ؛ ومتى بطل تفاعل الافراد في الدولة على اساس اشتراكهم في رعويتها ، ومساواتهم امام القانون والانظمة ، وجاءت بدلا منه اسس متباينة متنافرة ؛ ومتى انتصبت فواصل مصطنعة في صميم حياة الدولة ، شطرت الشعب الى فئات يتمتع كل منها بانظمة خاصة او يخضع لها : متى تم كل ذلك ، تلاشت الوحدة الحقيقية من حياة الدولة ، وتضاءلت اسبابها وضعفت مقوماتها ، وتفسخت الدولة حتماً رغم بوادر الوحدة الشكلية . فاساس الوحدة في الدولة هو

وحدة الشعور ، ووحدة المقاييس المـــدنية لحقوق الافراد وواجباتهم ، ووحدة الشروط التي عـــلى اساسها يتفاعل المواطنون وتدور حياتهم – وما مظاهر الوحدة ، في العلم الواحد والحكومة الواحدة والجيش الواحد والجنسية الواحدة ، سوى مظاهر يجب ان تعكس اساس الوحدة الاول : ومتى انعدم الاساس ، تضاءلت فعالية النتائج والمظاهر !

لا تقوم الدولة – والدولة شرطهـا الوحـدة الاصيلة – الا اذا قامت على اساس مشترك من الرعـوية والحقـوق والواجبات المدنية والتشريع والقضاء ! لا تقوم الدولة الا متى التقى ابناؤها في نطاق حياتهم المدنية ، على صعيد مشترك ! وحيث تسيطر الطـائفية في النظم والقوانين والمحـــاكم ، تتلاشى الدولة ، ويحل محلهـــا فسيفساء دولية ، ركيكة التركيب ، هزيلة البنيان !

• • •

(٥) ويقترن بهذه المظاهر عامل آخر له خطورته : هو التدخل الفعلي ، الرسمي او غير الرسمي ، الذي يقوم بـــه رجال الدين ، بصفتهم الدينية ، في شؤون السياسة والاجتماع والقضاء ... حتى والاقتصاد !

هنا تضرب الطائفية ضربتها الاخيرة على بنيان الدولة : هنا تدق الطائفية بطرقة قاسية جمجمة الدولة المدنية بلاهوادة : هنا تبيح الدولة لارادات ومصالح ، لا تهدف في الدرجـة

الاولى الى خير المجموع ، ولا يتسع افق نظرها حتى يضم مصلحة المجموع ، لان تتدخل في تقرير مصير المجموع تدخلا توجيه وجبة نظرها الجزئية ، وتمليه مصالح جزئية متضاربة على المجموع ! وهنا تتيح الدولة لاشخاص لم يتهيأوا لمعالجة المشاكل المدنية القومية ، ولم يعنوا ببحث القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقضائية ، لان يقرروا ، دونما سابق اختصاص ، وبصورة كيفية ، مصير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقضائية .

فتدخل رجال الدين في شؤون الدولة ، اذن ، خطر يهدد مصير الدولة من ناحيتين :

أ – من الناحية الاولى ، في منافاته لمبدأ وحدة مصلحة الدولة . وذلك لان رجل الدين ، اذ يتدخل في شؤون الدولة ،يتدخل فيهامن خلال منظار مصلحة طائفته الخاصة ، لا على ضوء مصلحة الدولة العامة .

ب – ومن الناحية الثانية، في منافاته لمبدأ الاختصاص في شؤون الدولة . لان التخبط في هذه الشؤون ، دونما المام بتفاصيلها واسسها ومقوماتها ، ودون اطلاع على اساليب تنظيمها وتنسيقها ، ودونماتخصص في وسائل اصلاحها وتوجيهها ، انما يترك شؤون الدولة عرضة للاجراءات المرتجلة والسياسات التعسفية الكيفية القصيرة النظر ، ويؤدي بالتالي الى هدر ثروة الوطن ، وهلهلة تركيب الدولة ، وهزالة

اجراءاتها ، ويؤدي اخيراً الى التضحية بمصلحة الشعب على مذبح الجهل وعدم الاطلاع والتخبط !

...

(٦) واخيراً ، تتبدى الطائفية – فوق كل ما ذكرنا من ميادين بروزها وظهورها – في المناورات الخفية ، التي تتذرع بالطائفية وتتخذها حجة ومستنداً ، وهي في الواقع مطية ووسيلة .

وسواء اجاءت هذه المناورات من مصادر اجنبية ، معادية لمصلحة الامة والوطن ، عاملة على اذلال الشعب واستغلاله وتسخيره لمآربها – ام جاءت من جانب مصادر وطنية ، تعمل ايضاً على تأمين مصلحتها الخاصة قبل اي اعتبار آخر ، ولا تتقاعس عن تسخير الشعب وجهوده وثروته وامكانياته لمصلحتها هي : فان المبدأ في هذه المناورات واحد : وهو استثمار بعض الفئات للرغبات والنزعات الطائفية (السائدة في الاوساط الشعبية ، والفاعلة في نفوس المواطنين) لتسهيل مناوراتها ومؤامراتها ، وتنفيذ خططها . وهذا الاستثمار دليل على مدى فعالية الطائفية في نفوس الشعب : لان اولي المناورات والمؤامرات انما يختارون العامل الاقوى في التأثير على الشعب ، ويصطفونه دون سائر العوامل الاخرى لاستعماله كوسيلة للضغط ...

الطائفية نتيجة وسبب ! ...

وهكذا ، تتبدى الطائفية في زوايا مختلفة عديدة من زوايا حياتنا القومية . وهي في كل منها عنصر خطر وافناء وتدمير . وسيمر بنا ، في معرض البحث ، تبيان هذا الخطر ، من الوجهة القومية ، ومن الوجهة الدينية .

بيد انه حري بنا ان نذكر ، في هذا المقام ، ان الطائفية ، في مظاهرها التي ذكرنا ، هي ، في آن واحد ، سبب ونتيجة : اي ان الطائفية تؤدي الى قيام « دائرة مفرغة » في حياة الامة .

• • •

فالطائفية تعمل بنفسها على استدامة نفسها ... وتؤدي ، باستمرارها الى استزادتها تأصلاً وقوة . ويقوم هذا الواقع على اشكال مختلفة :

(١) كل مظهر من مظاهر الطائفية التي ذكرنا ، ينبثق عن الاخريات ، ويساعد ، بالتالي ، على استمرار الاخريات ! فالطائفية في النفوس تؤدي الى انتشار العادات والتقاليد الطائفية — فاذا بهذه العادات والتقاليد ، بدورها ، تغذي النفسية الطائفية وتزيدها عنفاً وحقداً وجفاء ! ... والطائفية في الشعب تؤدي الى نشوء التكتلات والمؤسسات والمنظمات الطائفية — فاذا بهذه ، بدورها ، تعمل على تغذية الطائفية

في حيـاة الشعب ، والاستزادة من تأصلها وفعاليتها !..
والطائفية في الشعب تنعكس في القوانين – فاذا بالقوانين ،
بدورها ، تعمل على تجميد هذه الطائفية في الشعب ، في نفسه
وعاداته ومؤسساته ، وتعرقل التطور والتقدم الذي تطمح اليه
الفئات النيرة ، وتخنق النزعة البازغة في الاوساط الواعية للتحرر
من سيطرة هذه الافة !... ورجال الدين ، اذ يتدخلون في شؤون
الدولة ، انما ينبثق تدخلهم ، في الدرجة الاولى ، عن الحاح الفئات
التي يتكلمون باسمها ، وضجيج رغباتها ونوازعها واراداتهـا
الطـائفية – فاذا بتدخلهم ، بدوره ، يزيد هذه الرغبات
جموحاً ، وهذه الارادات تطرفاً ، وهـذه النوازع عسفاً ،
فيزيد الطائفية عمقاً في ضمائر المواطنين وارادانهم ...

• • •

(٢) والطائفية تغذي نفسها بنفسها بمعنى آخر ايضاً :
فهي ، اذا ما نشأت في طائفة معينة ، واوجـدت في
ابنائها نفوراً وجفاء وشكاً وعداء للطوائف الاخرى ، عملت
حتماً عـلى اثارة شعور مواز معاكس في تلك الطوائف :
فتصبح الطائفية ، والحالة هذه ، شعوراً متبادلا ، وحالة
نفسية مشتركة .

والواقع ، ان انتقال الطائفية ، كرد فعل ، من طائفة
الى اخرى – وهو نتيجة لوجودها في البدء في طائفة واحدة –
يصبح في السياق الطويل سبباً لاستدامتها وعمقها .

والواقع ايضاً ، في سائر اختبارات الحياة الانسانية ، ان العداء ، اذاظل وحيدالطرف ، سار في سبيل الانقراض : بينما هو ، اذا تبودل ، سار في طريق الازدياد والتأصل !

...

فالطائفية ، بطبيعتها اذن ، داءيتغذى من نفسه ، ومرض يزداد خطره بفعل استمراره . فهي ، افقياً ، تنتقل من طائفة واحدة الى مجموع الطوائف ، بفعل وجودها في الطائفة الواحدة ؛ وهي ، عامودياً ، تنتقل من زاوية من زوايا الحياة الى زاوية اخرى ، وتشوه كافة زوايا الحياة ، بفعل وجودها في الزاوية الواحدة .

ولعل هذا الخطر ، اخطر ما في الطائفية ! لان الداء الذي يتلاشى اذا ما استمر ، وتوصل الى ذروته القصوى ، اخف خطراً من الداء الذي يؤدي استمراره الى الاستزادة من قوته وفعاليته وشره !

...

(٣) وكمظهر من مظاهر هذه الخاصة في الطائفية ، ينشأ الشعور بالاقليات والاكثريات :

اذ ان حالة نفسية مريضة معينة ، تنشأ حتماً عن هذا الشعور بالنفور والعداء : وتنشأ متنوعة بتنوع الاوضاع لدى كل طائفة من الطوائف .

فالطائفة الصغرى — عدداً او قوة او نفوذاً او رقيا —

ينشأ فيها ، مع مرور الزمن ، شعور مركب : شعور بالاضطهاد والضعف والدونية ، وشعور بالتمرد والانتفاض. وهكذا تنشأ الاقلية – خائفة مذعورة مرتبكة ، طموحة للتفلت والتخلص . . . وعن هذا الشعور المركب ، ينشأ الارتماء باحضان الاجنبي ، حارساً او حامياً لها من مخاوفها الفعلية او الوهمية . . . ارتماء يحسن الاجنبي استغلاله ، ويسارع في تسخيره لمصالحه هو . . . فيفتح الباب على مصراعيه للتدخلات الاجنبية بحجة حماية الاقليات ، وللمشاريع الاجنبية المختلفة : ظاهرها العمل على هذه الحماية ، وباطنها العمل على تفسيخ الامة وتجزئتها وتشتيتها وشل قواها واضعافها واستعمارها . . .

واما الطائفة الاكبر والاقوى ، فينشأ عندها ، من الناحية الثانية ، شعور مركب ايضاً : شعور بالتفوق والقوة ؛ شعور بعدم احتمال الاقلية وتحفزها للتمرد ، وعدم احترام حقوقها (بما يزيد في شعور الاقلية) ؛ شعور بخيانة الاقلية لمصلحة الامة ، وتآمرها مع الاجنبي ؛ شعور بانها هي الامة ، وان الاقلية ليست سوى عنصر دخيل متطفل .

وبديهي ، ان هذين المركبين المعقدين من الشعور ، شأن الطائفية بكاملها ، يغذيها استمرارهما ، ويغذيان باستمرارهما الشعور الطائفي العام .

-٣-

الرباء الطائفي

هذا عرض موجز لاوجه تجلي الطائفية ، وبروزها في بلادنا .

ولكن خطر الطائفية يبدو بشكل اجلى في الوضع المعقد الجديد الذي توجد فيه .

فقد تسربت الى بلادنا ، بفضل تطور الوعي القومي في العالم ، روحية قومية واعية ، تشجب الطائفية وتنظر اليها كعقبة في سبيل تقدم الامة ورقيها ، وكلطخة عار في جبين تاريخها . وكان دعاة الطائفية اعجز من ان يقفوا علنا ومباشرة في وجه الروح الواعية الوثابة الجديدة : في الوقت الذي لم يرغبوا فيه بالتغلب على عصبيتهم الطائفية ، او بالتنازل عنها ، وعن المصالح التي تؤمنها ، في سبيل المصلحة الكبرى ، التي لا تتعرف الى مصالح الطوائف الجزئية ، ولا ترضى بان تضحى مصلحة الامة على مذبح تنافر هذه المصالح !

ازاء هذا الوضع التجأت الطائفية الى عملية التفاف مداورة ، فرضتها عليها طبيعة هذا الوضع وتعقيدها .

فاذا بالطائفية تتذرع ، في سبيل استمرارها ، بمصلحة الامة ، وتدعي المحافظة على هذه المصلحة لدى استزادتها من التأصل .

وهذا ما ادعوه « بالرياء الطائفي » .

وهو ليس فحسب في الادلاء بالتصاريح ، الكريمة في ظاهرها ، الداعية الى التفاهم والتحاب والتسامح في شكلها ، والتي تبطن نوايا طائفية وراءها — حسبما سمعنا كثيراً من التصريحات من بعض المنغمسين في الطائفية حتى الاذنين.

وانما الرياء الطائفي ابعد من هذا حداً ، واعمق خطراً:

وهو التذرع بالقومية لتبرير الطائفية ...

فمن الجهة الواحدة ، يدل هذا الواقع على ضعف في الطائفية اصيل ، يجعلها عاجزة عن الوقوف في وجه تيار القومية المكتسح الجبار .

ومن الجهة الثانية ، يدل على تشبث الطائفية بمركزها ، واصرارها على الاحتفاظ بسيطرتها ، وحشرجتها العنيفة الاخيرة !

ومن الضروري ان تتضح هذه الخطوة الالتفافية الريائية ، التي تقوم بها الطائفية — لان وعيها واتضاحها من اقوى العوامل التي تضمن مواجهتها وابطال مفعولها .

...

يتكون «الرياء الطائفي» ، كما قلت ، من التذرع بالقومية لتبرير الطائفية : وذلك بوقوف العناصر الطائفية موقف الشجب للطائفية وللتكتل الطائفي ، ودعوة طائفة معينة للتكتل في سبيل الحيلولة دون خطر الطوائف الاخرى المتكتلة !

فظاهر هذه الدعوة هي المصلحة القومية ... وهدفها المزعوم هو تأمين الاستقرار القومي ، والغاء العداء الطائفي ، والتقريب بين الطوائف ، وتحقيق الوحدة القومية .

ولكن باطنها ، من الناحية الثانية ، مناف لظاهرها والمزاعم التي تستند اليها : وذلك للاسباب التالية :

اولا ، لان نية القائمين بهذه الدعوة ليست مجردة من التعصب الطائفي ، وانما هي بالحقيقة منبثقة عن هذا التعصب ، مدفوعة به .

وثانياً ، لان الحذر من خطر معين والاستعداد لمجابهته لمن اقوى العوامل على تضخيم ذلك الخطر ، حتى ولو كان وهمياً ، وتعظيم شأنه .

وثالثاً ، وهذا هو السبب الاهم : لان الوحدة القومية لا يمكن ان تتم من شتات طوائف ، متنافرة كانت ام متحابة . فوحدة الامة هي وحدة المواطنين وقد التقوا على صعيد واحد ، وجمعتهم مصلحة واحدة ، فارادة واحدة . اما التوحيد بين طوائف معينة ، او فئات معينة ، تربط ابناءها فيما بينهم روابط داخلية خاصة ، وتكون هيئات متراصة متكتلة ، فلن يؤدي الى اية وحدة اجتماعية منسجمة : واذا ما نجح ، فانما نجاحه موقت ، ودوام الاستقرار في كنفه مرهون بتفوق العناصر التي تعمل على الانسجام ، على العناصر التي تثير الخصام والاصطدام . وان « وحدة » كهذه لتحتوي ، في

صميمها ، على بذور التقلقل والتفسخ والتجزئة ، عاجلاً وآجلاً .

• • •

فالرياء الطائفي ، اذن ، في هذه المرحلة التي وصل اليها تطور وجداننا القومي ، وتطور حياتنا القومية ، نقطة انتقال حرجة ، ستقرر الى حد بعيد مصير القومية او الطائفية في بلادنا . وعلى كل حال ، فهي دليل قوي على المعركة المحتدمة القائمة بين النزعتين .

-٤-

الباسات

في هذه الحالة من الطائفية ، وفي هذا الوضع الاجتماعي النفساني الذي وصلنا اليه ، اصبحت الطائفية موضوع البحث الاجتماعي الاول . كما اصبحت الوسيلة الكبرى التي يستعملها كل طامح لاكتساب الرأي العام الواعي . فكل حزب ينشأ – ولو نشأ على اساس المصالح الطائفية ، ولتأمينها – ينادي بمحاربتها ، وكل مصلح ، يدعو الى نبذها وتحطيمها ؛ وكل برنامج اصلاحي ، يتضمن عداء الطائفية كعنصر اساسي من عناصره !

لكن هذا العداء الاجتماعي للطائفية – مخلصاً كان ام مرائياً – لا ينبثق دائماً عن فهم واضح لحقيقتها او اخطارها ، ولا يعكس فيها للاساليب الصحيحة لمعالجتها .

ولعل هذا المظهر الاخير من مظاهر الطائفية – وهو

التخبط في فهمها ، ولا سيما في عدم التمييز بينها وبين الدين الصحيح - هو من الاخطار البعيدة الاثر التي تنطوي عليها الطائفية .

فليست الحقيقة وحسب في ان انصار الطائفية يتشبثون بها ، ويدعون لها ، مباشرة ومداورة ، حسب الحاجة والاوضاع - وانما الحقيقة ايضاً ، والحقيقة المؤلمة ، ان اخصام الطائفية لا يحيطون احاطة تامة بجوهرها واخطارها ، ولا يلمون الماماً كافياً باساليب معالجتها ، فتلتبس عليهم الطائفية بما ليست هي ، ويؤدي تخبطهم هذا بالتالي الى اعطاء الطائفية سلاحاً جديداً تتذرع به ، مستمداً من مهاجميها واعدائها .

...

ان هذه الحالة المؤسفة من التخبط هي التي اهابت بي الى درس الطائفية درساً لا يتأثر بالدعوات الجماهيرية ، ولا يستند الى تقبل المزاعم التي يبديها كلا المهاجمين والمخاصمين على علاتها .

- ٥ -

هذا البحث ...

ولا بد لاي بحث مسؤول في الطائفية من ان يبتدىء

بدرسها منذ نشأتها في نفس الانسان، وتقصي العوامل النفسية الروحية التي تعمل على هذه النشأة، وبصورة خاصة الالتباس بين الدين والطائفية .

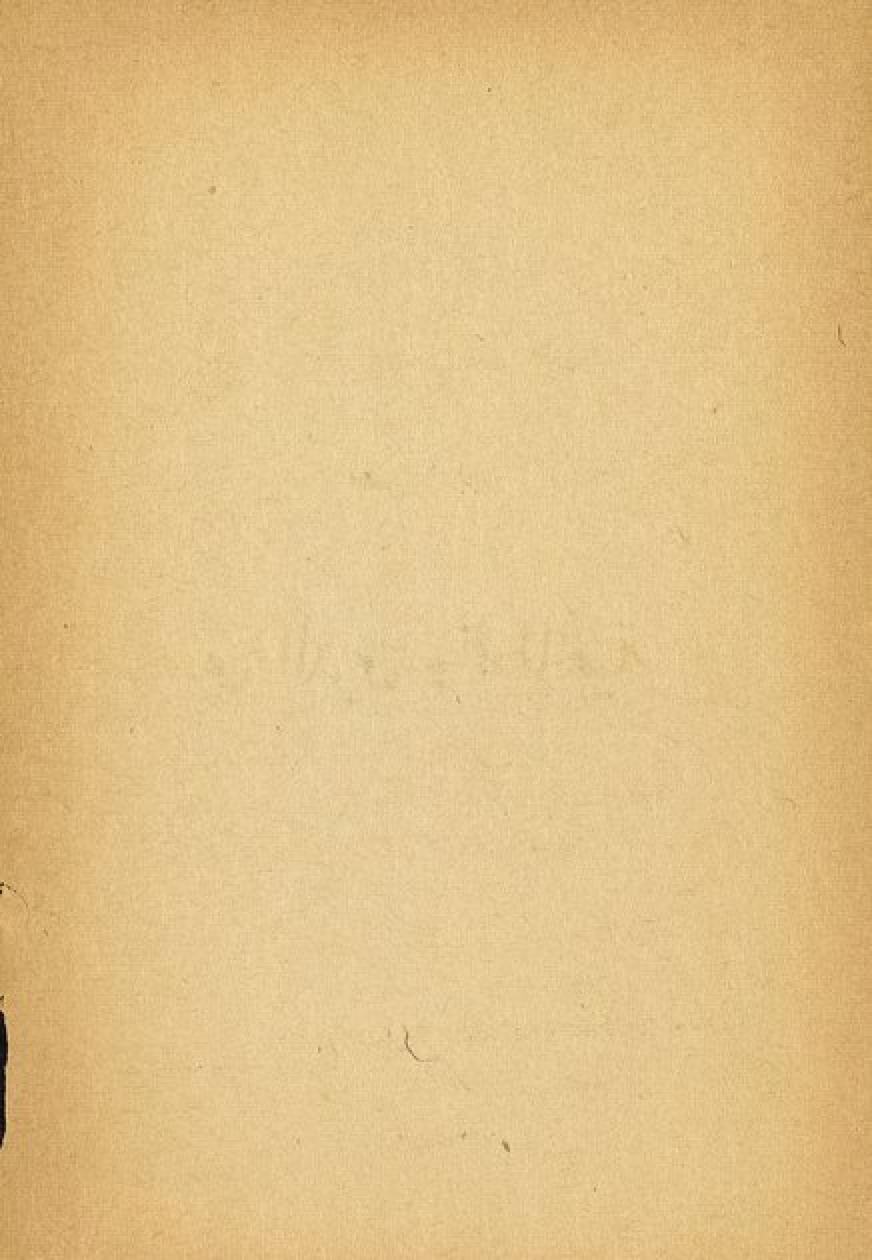
اذان يقيني هو ان الطائفية ليست سوى مسخ للدين ، وتقييد له بقيود تجمده وتخنقه، قيود لا يتعرف اليها الدين بطبيعته الصحيحة ولا تنسجم مع داخليته واصالته ! وخطر الطائفية بالتالي ، لا ينحصر في المستوى الاجتماعي السياسي القومي ، بل انه يتناول ايضاً جوهر الدين ويسيء اليه ! ... ومعالجة الطائفية ، لهذا كله ، لا تكون فقط في النطاق الاجتماعي ، بل تكون ايضاً ، ولعلها تكون هنا في الدرجة الاولى ، في النطاق الروحي الديني .

بهذه الفكرة الرئيسية الج موضوع « الطائفية » في هذا البحث ، متقدماً ، في الفصل الاول ، الى بحث العلاقات القائمة بين الدين والطائفية .



الفصل الاول

بين الدين والطائفية



الفصل الاول

بين الدين والطائفية

- ١ -

« ان التاريخ ، حتى الان ، لسجل كئيب للفظائع التي تستطيع ان ترافق الدين وتقترن بـه : فمن التضحيات البشرية (كصرع الاطفال ، واكل لحوم البشر) ، الى الاوهام والوساوس ، وعداء الشعوب والاجناس ، والعادات المحطة ، والهستيريا ، والتعصب – كل هذه يمكن نسبة مسؤوليتها الى الدين . حتى لكأن الدين بات الملجأ الاخير للوحشية الانسانية . فالوقائع التاريخية الواضحة تنفي نفياً باتاً كل اعتقاد ساذج بربط الدين بالخير دونما تحفظ ... يستطيع الدين ان يكون ، ولقد كان بالفعل ، الوسيلة الرئيسية للتقدم : ولكننا ، اذا استعرضنا البشرية بكاملها ، وجدنا لزاماً علينا الحكم بان الدين لم يكن دائماً هكذا ! »

هذا ما يقوله الفيلسوف الانكليزي الكبير « الفرد هوايتهد » في كتابه « **Religion in the Making** » (1)

(١) طبع ماكميلان ، ١٩٢٦ ، ص ٣٧، ٣٨ .

ويقول الفيلسوف الفرنسي التومائي ، جاك ماريتان ، في بحثه عن التفاهم الديني ، الموسوم بعنوان « من هو قريبي » والمنشور في كتابه « مفتدين الزمان » (١) :

« يتراءى لي ان الدين قد فعل تاريخياً ، في تقسيم الناس واذكاء عناصر صراعهم ، بمقدار ما فعل في تهدئتهم واحلال السلام بينهم . »

وقدماً قال لوكريشيوس : « آه ، كم من الشرور يستطيع الدين ايجادها ! »

وهاسفر التاريخ امامنا مفتوح ، نستطيع تلاوته ببصيرة ، فنرى بانفسنا صدق ما تنطوي عليه هذه الاقوال ؛ ونتحقق بانفسنا هذا الصراع التاريخي الرهيب ، بين الدين كعامل فعال في الحث على الخير ، وتحقيق اسمى عناصر النفس الانسانية واخصبها واكثرها جودة واعمقها جلالا — وبين الدين كعامل على تجميد العقول ، وكبت الحريات ، وافقار النفس ، وبث الخصام وتوليد الكراهية !

ان هذا الصراع واقع ، وواقع مؤسف . ومن الخير لكل من يعنى بانسانية الانسان ، وتحقيقها ، ورقيها ، ان لا يغمض عينيه عن هذا الواقع ويتجاهله — كما ان من الخير له ان لايتسرع في القاء الاحكام المتسرعة ، والاسراع الى فرض النتائج

(١) الترجمة الانكليزية ، (بلس) سنة ١٩٤٤ ص ١١٢

التي لا يؤيدها الفكر السليم ، والانزلاق في تعميمات شاطحة لا يسندها البحث الرزين المتزن .

لنبحث في هذا الواقع : ما اسبابه وعلله ؟ فذلك خير من ان ننكر هذا الواقع ونتجاهله ، كما انه خير من ان نحمل الدين بطبيعته مسؤوليته ووزره !

-٢-

والحقيقة ان الدين لا ينفرد في هذا الوضع الذي وصفناه. بل ان كل ما في الانسان من قوى ونوازع ، وكل ما في نفسه من امال ومطامح ، وكل ما في حياته من عوامل وعناصر ، تتجسد ، في واقع الكيان الانساني ، على درجات متفاوتة من القيمة ، بل ومن الخير والشر .

ففي قلب الانسان وضميره وارادته ، في نفس الانسان عموماً ، متسع رحب لمدى الخير والشر ، في تحقيق النوازع والقوى في واقع حياته !

وكم من قوة فعلت في نفس الانسان ، فانقذته من انانيته وانحطاطه وبهيميته ، ورفعت به الى ذرى الانسانية ، وحفزت اسمى ما في نفسه للفعل والتحقيق ، ودعت قواه الوثابة النيرة للانطلاق من مكامنها في اغوار نفسه الشائكة العميقة الدفينة — ثم فعلت ، هي عينها ، في الانسان ايضاً ،

فاذلته وخفضت من مقامه ، واتاحت لانانيته وانحطاطه وبهيميته ان تسرح في آفاق طليقة من القيود ، وايقظت فيه غرائزه ، الراقدة في مجثمها ، في اعماق نفسه ، وبددت النور الحي من حياته ، ودفعت بنفسه الى التخبط في ظلمة قاتمة وضلال تائه وبهيمية شاذة شرهة .

فالفلسفة : كم اضاءت للانسان من سبيل ، وكم عرفت الانسان بنفسه ، وكم خلصته من الجهل والغباوة — وكم فعلت ، على نقيض ذلك ، في تكبيل الانسان في جهل اعمق من جهله ، وكم قذفت بالانسان في تيه مجدب ، اضلته فيه سبيل الحياة ، ودفعته باحثاً وراء سراب يفني في نشدانه عمره ، ويستنزف قواه الخلاقة المبدعة على غير ما هدى !

والعلم : الم يكن منقذ الانسان من الوساوس والاوهام والخرافات ، او لم يكن سبيل الانسان لمعرفة الطبيعة وسننها ونواميسها ، وبالتالي للسيطرة على الطبيعة وتكييفها لخدمته وتأمين حاجاته ؟ فما بالنا نراه الان مطية للشر وسبيلا للاثم ، ووسيلة للدمار والهدم بدلا من البناء والتعمير ؟

والحب : كم من نفس طهرها الحب ، وانقذها من كآبة الوحشة الخانقة ، واعاد لها اطمئناناً بعد قلق ، واستقراراً بعد توتر ، وحفزها الى الخير ، وايقظ فيها عوامل التضحية والتفاني — وكم من نفس حطمها الحب ، وقضى فيها على شعلة الخير ، وحول نورها الى عتمة ، وحفز فيها انانيتها الراقدة ،

ونبهها واثارها ، فاستحالت بسحره العجيب الى شره للاستئثار فالسيطرة فالاستبداد — او ايقظ فيها بهيميتها ، فتحول الانسان بفعلها الى شهوة جسدية جامحة ، اكتسحت عناصر البناء والخير ، وتركتها كسيحة مقعدة ، واطلقت عناصر الشهوة الجسدية لتعصف طليقة في اجوائها ...

والقومية او الوطنية : — كم من نفس ولد فيها شعورها القومي بطولة وجلالا ، ودفعها للتضحية كريمة متفانية ، وللشجاعة جبارة عنيفة ، وللاستشهاد ، التقدمة الكبرى يؤديها الانسان لخير مجتمعه — وكم من نفس جعلتها القومية سلبية ناقمة حقودة ، ورمت بها في عبودية ذليلة ، او عاطفة جامحة عمياء !

وكذلك الدين : فكم من نفس كان لها الدين المنقذ الوحيد ... وكم من نفس سمت بفعله وارتفعت ، وتطهرت ؛ واستسلمت ، دونما ذلة ، لارادة الله ، وهي الخير والمحبة والقوة ؛ فاصطبغت بهذه الارادة ، واستنارت بضيائها ؛ واستقرت في هدوء الايمان وحبور الاطمئنان وبهجة الثقة ، وتمتعت بكرامة الحمد ، وانطلقت تبذر الخير سمحاء من اعماقها ، وتبث الحب بناء دفاقاً من خزان المحبة الجاثم فيها ، وتواجه بروح الثقة كافة ازماتها ، وتقابل الشر والاثم بصفح وغفران ! — وكم من نفس كان لها الدين كابوساً ، قتل فيها التحرر ، وكبلها بالاوهام ، وايقظ فيها التعصب ، انانية وجهلا واغلاقاً ؛ والعداء ، كراهية وبغضاء ؛ ورمى بها

كسيحة لا تنجز فعلا ، ترنو الى العالم الآتي مكافأة تنالها لقاء ما تدينه لله على هذه الارض من صلوات وتمتمات وطقوس ، وترتعد خوفاً من عقاب الاخرة ، فتدفع صاغرة ، وبرارة ، جزية ارضية تحسبها الخير وهي ليست بخير ، وتحسبها الطاعة وان هي سوى عبودية الجهل لاوهام الجهلة !

... ذلكم مصير الانسان ، بين قواه ونوازعه : يسمو بها الى ذرى نفسه ، او ينحط بفعلها الى وهاد انسانيته : يلتقي فيها بالحق ، والخير ، والنور ، والله ؛ او يرتمي بفعلها كسيحاً في صميم الجهل ، والظلمة ، والاثم ، والفجور !

ذلكم مصير الانسان ، وليس الدين فريداً في احداث هذا المصير .

-٣-

والعلة في هذا الوضع المزدوج لا تكمن في طبيعة الدين ، بل في طبيعة الانسان ... وما بروز هذه الظاهرة في غير الدين من القوى الفاعلة في نفس الانسان ، سوى الدليل الواضح على انها ظاهرة تنشأ في طبيعة الانسان ، لا في طبيعة الدين .

لان الانسان هو الذي يختبر الدين ، كما يختبر الحب والقومية والعلم والفلسفة ؛ وهو بالتالي الذي يحول ذاك ، كما يحول هؤلاء ، من منقذ واداة رقي وتأصل ، الى سبب للانحطاط والدمار .

وما ذاك الا لان في اعماق الانسان – الذي يختبر كافة هذه القوى ويتيح لها ان تفعل في نفسه – القدرة على النظر الى هذه القوى كما هي ، على حقيقتها ؛ كما ان في اعماقه ايضاً القدرة على تشويه هذه القوى ، والنظر اليها على غير حقيقتها .

اي ان في الانسان نفسه ، نزعتين متضادتين ، تتطاحنان في اعماقه ، وتتنازعان السيطرة على عقله وقلبه وضميره ، على كيانه بكامله : نزعتين هما اللتان تقرران كيفية اختباره لهذه القوى ، والصيغة التي يتأثر فيها بهذه القوى .

ففي الانسان نزعة تدفعه لان يختبر هذه القوى على حقيقتها : فيتأثر بها في اعماق نفسه ، ويقتبسها في باطنه ، حيث تكون وتنمو وتفعل في اصالتها وكما هي – كما ان في الانسان نزعة تدفعه لان يختبر هذه القوى مشوهة مدسوسة : فيتأثر بها تأثراً خارجياً ظاهرياً شكلياً ، ويجاريها في خارجيته ، فيسيء الى نفسه واليها .

ليس الشر بكامن في طبيعة الدين بحد ذاته : وانما الشر كامن في اعماق الانسان ، في نزعة من نزعات الانسان ، تحتم عليه – اذا ما هيمنت على كيانه – ان يشوه الدين لدى تحقيقه في نفسه ، فيحققه على غير حقيقته وطبيعته .

والدين ، بحد ذاته ، بريء من كل ما يصدر عن الانسان تحت سيطرة هذه النزعة ...

هذه هي الحقيقة التي علينا ان نجعلها نقطة ابتدائنا في

بحث القضية الشائكة التي نحن بصددها ؛ وهي حقيقة ، ان نحن لم نعها وعياً تاماً ، فقـد شططنا بعيداً لدى بحث القضية ، وابتعدنا عن امكانية معالجتها معالجة صحيحة مجدية .

. . .

ان الدين ، في طبيعته وحقيقته ، لذو جوهر قد يساء اختباره من قبل الانسان — فيحمل الانسان عناصره على غير محملها الاصيل ، ويحوله عن مجراه الصحيح ، ويجعله بالتالي غير ما هو .

فما هو الدين في حقيقته ؟ وكيف يشوهه الانسان ، ونحوله نزعته الضالة عن مجراه الصحيح ؟ وكيف يشوهه الانسان فيجعله غير ما هو ؟ ويغدو الانسان بنفسه ، بفعل هذا التشويه ، مطية لهذا التشويه عينه ، بعد ان يكون هو الذي اوجده وولده ؟ — هذه هي الاسئلة التي يفرضها علينا منطق هذا البحث في مطلعه . وبها فلنبدأ .

. . .

— ٤ —

من الاخطاء التي يقع فيها الباحث ، تجريد موضوع البحث عن نطاقه العام وسياقه ؛ والنظر اليه ، بعد هذا التجريد ، منفرداً منعزلا طليقاً من نطاقه ، وبالتالي بعيداً عن العناصر التي تستطيع — وهي فقط تستطيع — ان تلقي

عليه نور طبيعته الصحيحة . اي بكلمة اخرى : ان خطأ تجريد موضوع البحث عن نطاقه العام ، ليؤدي الى تجريده عن شروط كيانه ، وبالتالي عن عناصر ماهيته .

فلا ننظرن الى الحب ، مثلاً ، كموضوع ، منفرد ، قائم بذاته ، ذي ماهية مجردة غير مرتبطة بنطاق اشمل ، او مستقرة في صميمه : بل لننظر الى الحب ، اذا ما شئنا فهمه واستيعاب حقيقته ، كحالة وجدانية يختبرها الانسان ، وتؤثر في اعماق الانسان تأثيراً معيناً .

وكذلك الدين : يجب ان نبدأ درسنا لماهيته ، من ادراكنا هذا النطاق الشامل الذي يستقر في صميمه : اي من ادراكنا ان الدين حالة كيانية يختبرها الانسان في اعماق وجدانه . فالدين مرتبط بالانسان ، وبخبرة الانسان، وبحياة الانسان، ارتباطاً وثيقاً لا يحتمل السلخ او التجريد .

...

فالدين شأن انساني حتما — رغم ان مصادر وحيه تتعدى نطاق الانسان وتنبثق عن القدرة الالهية في الدرجة الاولى. الدين شأن انساني ، وليس سوى الانسان ، بين سائر المخلوقات ، من يتدين او يختبر الاختبار الديني .

والدين ، لهذا السبب البديهي ، مرتبط اذن بطبيعة الانسان ، ينمو من ضمنها ، وينبثق تلبية لمقتضياتها . ولو لم يكن الانسان ما هو ، لما كان الدين ما هو .

ووضع الانسان ، في سلم الكائنات التي يزخر بها هذا الكون ، وضع فريد بين سائر هذه الكائنات .

وفرادة الانسان وفذوذيته ، بين سائر الكائنات ، تظهر في خاصة تولد في صميم نفسه توتراً شاقاً يمزقه ، ويحول حياته الى ظل مأساة عنيفة تتعرى في كل لحظة من لحظات كيانه .

وهي : ان الانسان ، في انسانيته الصحيحة – يجثم في اعمـــاق نفسه ، ويتعرى (في اصالته) في صميم باطنه ، في داخليته التي يختبرها يوم ينعكف على نفسه داخلياً .

رواية حياة الانسان– تلك الرواية الغـاصة بالحوادث ، الزاخرة بالقيم ، المتنوعة في الالوان والظـــلال ، الغنية بالانفعـالات والنوازع ، الخصبة خلقاً وتوليداً وانجازاً ، الثرية بالاختبار والمعاناة والتمتع – رواية حياة الانسان تـدور مشاهدهـا ، وتتجلى قيمهـا ، ويتعرى ثراؤها ، في اعماق داخلية الانسان نفسه !

في نفس الانسان عمق رهيب ، هوة سحيقة ، مخدع داخلي ، هي الانسان باعمق معنى : فيهـــا يكون الانسان ، وفيها تفعل نوازعه ، وفيها تتعرى خبرته .

هنا تجثم النوايا – فعل الانسان قبل ان يتحقق في العالم الملموس ، فعل الانسان وهو بعد ارادة ورغبة وطموح ...

هنـــا تجثم النوازع – بذور الحركة ، وينابيع العمل

الفياضة ، تتفجر فيما بعد حركة ونشاطاً وعملا ...

هنا تجثم الانفعالات الوجدانية – محبة او كراهية ، الماً او حبوراً ، مرحاً او يأساً او تمخضاً بخلق ... وهي تتعرى ، فيما بعد ، للعين وللاذن ، افعالا او كلمات ، في العالم الملموس ...

هنا يدور الصراع ، يتمزق الانسان في حضنه بينه وبين نفسه في نضال قواه فيما بينها ، وتتصدع ارادته في تفسخ كئيب ، ضمن اطار وحدة لن ينجح التصدع في القضاء عليها !

هنا – في اعماق هذا المخدع الداخلي – تتعرى انسانية الانسان وتتحقق، و « يكون » الانسان : في عزلة عن الناس ، في منأى عن العالم ، في غربة بعيدة ، بعيدة ، حتى عن اقرب المقربين ... هنـــا الانسان في « لغزيته » ، في متناقضاته ، في اسراره ، في كينونته التي لا يعرفها العالم ، في خلواته المجهولة ، في عالمه الخاص ، حيث لا ينفذ «الاخر» ولا ينتهك حرمته « الغريب » ...

هنـــا « الانا » في صميم « انويتها » : وحيدة ، غريبة مجهولة ، محوطة بهالة من السرية واللغز ، مسربلة بالمجهول !

بيد ان الانسان – هذا الكائن الغـائص في داخليته ، الغارق في لجج باطنيته – هو ايضاً نقطة التقاء بين نطـاق النوازع الوجدانية والخبرة الداخلية، وبين نطاق الخارج : المادة الملموسة ، البدن، العالم ،الطبيعة ...

هنا ينشأ « التعبير » : ومـــا التعبير سوى « نقل » ما ينطوي عليه الداخل ، الى الخارج ... واعلانه ، واتاحة فعله في عالم الطبيعة ، بين الآخرين ...

ومن هذا الازدواج ، او هذه الثنائية ، في صميم طبيعة الانسان ، ينشأ التوتر الكئيب : التوتر ، يفرضه على الانسان وضعه المزدوج بين نطاقين ، يخضع الانسان لهما في آن واحد ، ويحيا فيهما معاً ، ويتحتم عليه ان يحقق نفسه فيهما كليهما ، رغم ما في مقاييس كل منهما ومعاييره ، وسننه ، ومفـاهيمه ، ومقولاته ، من تباين مع ما في الآخر ...

هنا التوتر ، صراعاً يمزق الانسان : بين خبرة الداخل ، في حيويتها وتدفقها وحريتها ، في عفويتها وطزاجتها وحركتها : وبين فعل الانسان في الخـــارج ، تقيده سنن الخارج ، وتكبله نواميسه .

في داخل الانسان ينبثق الخلق ... وفي الخارج يتحول الخلق الى فعل كسيح ! في داخـــل الانسان تتولد النية ، رغبة جياشة طموحة حرة ... وفي الخارج تتحول النية الى فعل مقيد باعتبارات لا آخر لها ، محدود بعوامل لا سيطرة للنية عليها ، مستعبد لمقتضيات نطاق يتضاءل فيـه الانسان وتتكبل حريته وتتقيد فيه طلاقته !

• • •

في هذين النطاقين يعيش الانسان : لكنه في النطـــاق

الاول يكون نفسه الحقيقية ، وفي النطاق الثاني يكون انعكاساً منكسراً ، وصورة مشوهة ، وتعبيراً متلعثماً ، عن نفسه الحقيقية ...

في النطاق الاول يعاني الانسان حالة نفسية معينة : هي النغم والصورة ، والوزن والفكرة معاً ... فيضيق بها الانسان ، على رحب مدى نفسه ... وتجيش في نفسه رغبة لجوجة ، بل لهفة دفاعه ، للتعبير ... فاذا به ، لدى التعبير ، مقعد كسيح : واذا بهذه « الحالة » الخصبة الثرية التي عاناها ، تنتقل الى الخارج نغماً موسيقياً ، او تمثالا او صورة ، او قصيدة بل بيتاً بل كلمة ، او نظرية بل فكرة — منسلخة عن اخواتها ، مقيدة بقيود الصوت (وفي اعماق الانسان صوت لا ينطلق عن الحنجرة ، ولا عن الآلة) واصفاد اللون او المادة (وفي خيال الانسان ظلال واشكال تعجز اللوحة او التمثال عن تجسيدها) ، وحدود الوزن الكلامي (وفي داخل الانسان اوزان لا تستطيع اوزان الكلام اداءها) ، ومقاييس العقل ومقولاته وتصوراته (وفي رؤيا الانسان ، من الفكر ، ما لا تحمله المقولات والكلمات) ... فاذا بالحالة التي عاناها الانسان ، في ميلادها البكر في اعماق نفسه ، في خصوبتها وثرائها وحريتها وعفويتها ، تنتقل ممزقة مجزأة ، منسلخة ، كسيحة ، عبدة ، عبر التعبير الى الخارج ... وتنتقل منهوكة ، كمن عاني مخاضاً ، بعد عملية التوليد في

الخارج (وان هي سوى عملية النقل من الداخل الى الخارج!)، يبدو عليها العياء والاجهاد... واذا بها وفي الوانها شحوب، وفي صفاتها تشويه، وفي تدفقها توقف، وفي اصالتها زيف، وفي حريتها عبودية ذليلة ...

ويعاني الانسان، في داخله، حالة نفسية معينة: خبرة اصيلة من «الحب»، هي في النفس حنين، وفرح، واستسلام ولاء واخلاص ... ونحن هذه الخبرة الى التعبير، تتلهف الى البواح، عبر هذا «الداخل» رغم اتساع آفاقه: تتلهف الى البواح، «للآخر»، «للغير» (فانفعالات الانسان وثابة تأبى ان تسجن في قفص وحدة النفس وعزلتها ...) ولكنها - وهي الحالة الاصيلة من التفاني والاخلاص والحنين البهيج، ممتزجة متصلة لا تنفسخ او تنسلخ - لا تكادتصل الى العالم الخارجي، حتى تتبدى منهوكة، وتسقط، بعد العناء والاجهاد، ظلاً شاحباً لما كانت عليه في اشراق شمس الداخل: اذا بها تتساقط كلمة جافة، مهما عسلها اللسان، ومهما حاولت النفس ان تعصر نفسها في احرفها الخشنة؛ وتتساقط قبلة، ممزوجة بحرقة البهيمية؛ وتتساقط عملاً او خدمة او تضحية، اين هي من اصالة الحالة الحية التي تجول في الداخل متلهفة للبواح!

ويعاني الانسان في داخله حالة نفسية معينة: خبرة اصيلة من الرغبة، والارادة، والنية ... فنحن هذه الى التعبير،

في فعل او عمل ... ولكنها ، لا تكاد تنتقل الى عتبة العالم الخارجي ، حتى تقيدها هناك قيود لا حصر لعددها ، فاذابها تبدى في العمل شكلا مشوهاً ممسوخاً لما تمخضت النفس به في منطويات نفسها ، في النوايا والرغبات والارادة ... وكم من نفس انطوت على انبل ما في النفس من سجايا ، وقامت فيها اسمى ما في النفس من رغائب ، تراءت للعالم الخارجي نفساً اعتيادية ، كسائر النفوس ، وعجزت عن فرض ارادتها ورغباتها على العالم الخارجي ، وتحقيق نوازعها في ارجائه ! ... وكم من نفس عصفت فيها الشهوات ، وثارت في اعماقها الرغبات الاثيمة ، واقعدتها عن تحقيقها ضعفات ، او مخاوف من قانون ، او قيود ، اياً كان نوعها ، من قيود الخارج ... كم من خير ثوى في اعماق النفس ، وكم من شر : وظل سره مجهولا في العالم الخارجي ... « انما الاعمال بالنيات » ... « ومن نظر منكم الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه ! ... »

ويعاني الانسان في داخله حالة هي اعمق هذه الحالات كلها ، واشدها اصالة ، واكثرها تعبيراً عن انسانيته واثراء لشخصيته : حالة من الاتصال بالله ، والفرح بمشاهدته ، والاستسلام لمشيئته : وهي حالة ، تختلف عن سائر اخواتها في ان البوح بها ، والتعبير عنها ، لا يتحتم عليه بالضرورة ان ينتقل الى الخارج ، بل يستطاع تحقيقه مباشرة ، وفي الاعماق الداخلية ، بين الانسان والله : حيث يلتقي الاثنان

في المخدع الداخلي – في الصلاة ، لفتة من المخلوق نحو الخالق ؛ وفي العبادة ، فرحاً داخلياً يشرق في ارجاء نفسه ؛ وفي الثناء والتسبيح ، بهجة تتحطم الكبرياء ذليلة على اقدامها ؛ وتقبلا للغفران والصفح ؛ وفي الاسترشاد ، ضياء ينير النفس ؛ وفي الاستعانة ، قوة يستمدها الضعف بقوة الضعف ... ولكن هذه الحالة ، اذ تنتقل الى الخارج ، تستحيل حتما الى شكليات خارجية ممسوخة ، لا تلبث ان تنقلب اصناماً يعبدها الانسان دون الله ،ويعنى بها دون الحالة التي ولدتها–تستحيلَ الى طقوس وفرائض وترتيبات ، قشور تطغى على اللباب وتخنقها ...

...

هذه هي مأساة الانسان : مأساته في ازدواجيته ...

واذا كانت ازدواجية الوضع الانساني هي مصدر فذوذه وتفرده دون سائر الكائنات ، وهي مجال عظمته ، لانها هي التي تتيح للانسان (وهو كمية مهملة في عالم لا متناهي الرحابة والاتساع ، وقوة صغيرة وسط طبيعة جبارة) ان تقوم في اعماقه حياة واعية خصبة هي اعمق ما في الكون ، بل اعمق من الكون : – فان هذه الازدواجية عينها هي التي تقذف بالانسان الى صميم التوتر ، الى جوف التناقض المرير ، وتحول حياته الى جحيم المأساة ...

ومأساة الانسان ، في اعمق معانيها ، هي مأساة انبثاق

المأساة فيه عن مصدر عظمته ! فهي مأساة عظيمة — عظيمة لانها تدلل على عظمته : فليس في الصخر مأساة ، رغم صمته الرهيب . وليس في الطود مأساة ، مهما علا انتصابه في وحدة ووحشة ، وفي استقرار ينحر الفناء. وليس في اليم مأساة ، مهما استمرت امواجه في تلاطمها وهياجها الصاخب ، وتحطمها بكبرياء ، على صخور الشاطيء ، في نظام رتيب لا يعرف الملل ولا يــذل ! وليس في الفلك من مأساة ، مهما اتسعت آفــاقه ، وتعددت كواكبه وشموسه ، ورصعت شموعه ، الآكلة نفسها في احتراق نحو الفناء ، فضاء القبة الزرقاء ! كلا ! وانما الانسان وحده في مأساة ، ومأساته عظيمة لانها وليدة عظمته ، وازدواج طبيعته — وليدة ذلك العــالم الباطني الثري ، يتفتح كل لحظة عن اكواء جديدة ، وعن قوى وثابة ، وعن كنوز متعرية : ذلك العالم الذي يقوم في كمية من الطبيعة حقيرة ، وفي ضعف من المادة تافه ! ...

...

وفي ظلال هذه المأساة يعيش الانسان ، يعيش في كل لحظة من لحظاته .

وتقوم هذه المأساة في ناحيتين :

اولاهما ، في التوتر الذي وصفناه بين النطاقين الملتقيين في طبيعته ، واللذين يتحتم عليه ان يحيا ضمنهما ، وضمنهما في آن واحد ، رغم تباينهما في المقاييس والنوع ...

والثانية : في وضع حياة الانسان الخارجية ، بالنسبة الى قيمتها الصحيحة ، وبالنسبة الى نزعتها الملحة المحتمة للتعالي عن هذه القيمة ، وللتمرد على وضعها . فحياة الانسان الخارجية ليست سوى رمز لحياته الداخلية ، وصدى لما يدور فيها ، وانعكاس لما تنطوي عليه ، وانبثاق لما تتمخض به . ولكنها في الواقع ، تنقلب الى حياة قائمة بنفسها ، متمردة على وضعها ، ثائرة على ارتباطها بالعالم الداخلي — وتنزع نحو تسخير الانسان لها ، واستعباده لاصنامها ! وليس في رواية حياة الانسان من مشهد اشد ايلاماً على النفس ، واكثر تشويها لشرعة القيم الصحيحة ، من تحول الرمز الى صنم ، والوسيلة الى غاية !

. . .

هذه هي مأساة الانسان : مأساة تخيم على حياته . فاما ان يعيها ، ويتمزق في مرارة كئيبة من جراء ادراكه لها ؛ او ان يجهلها ، فيكلل مأساته الرهيبة بمأساة ارهب — هي جهل المأساة نفسها !

هذه هي مأساة الانسان : تخيم على حياته في كل لحظة من لحظاتها ، وفي كل زاوية من زواياها .

وليست مأساة الدين ، في الواقع ، وتحوله الى الطائفية ، سوى لون من الوان مأساة الانسان الشاملة !

وواجب الانسان — واجب كل من يعنى بانسانيته

وقيمها وغناها – ان يعود دائماً وابداً الى اعماقه ، ليحيا في داخله حيــاة تليق به ، حياة هي وحدها الحياة الانسانية الاصيلة ..، واجب الانسان ، في الفن والفكر والحب ، كما في الدين ، ان يصغي الى نداء الاعماق الهاتف في اذنيه ، – نداء انسانيته الصحيحة – فيعود ، دائماً وابداً ، الى اعماق نفسه ، حيث تكمن نفسه الحقيقية ، حيث يكون نفسه حقاً ... وان لم يكن هذا التأصل في اعماق الداخل ممكناً بشكل دائم ، فلا اقل من ان يسعى الانسان ، في لحظات ملهمة من حياته ،لأن يغوص في اعماقه ؛ ولا اقل مـن ان يسعى ، في لحظات حياته الاعتيادية الــتي يقتضيها ضغط الظروف وحاجات العيش وضرورات التاريخ والمجتمع ، الى الحؤول دون تمرد الاشكال عــلى الجوهر ، وانقلاب الرموز الى اصنام ، والوسائل الى غايات ...

ومن ضمن هــذه العملية النضالية العسيرة – عمليـة « تأنسن الانسان » باستمرار ، وصيرورة كينونته – تقوم عملية العودة الى الدين ،من شباك الطائفية المعقدة الخادعة ..

–٥–

نعود الى سؤالنا : مـــا هو الدين؟

واذا كان الدين في حقيقته هو « الاختبار الديني » القائم ،

في المقام الاول، في داخلية الانسان ، والذي يشع الى الخارج من نوافذ مختلفة، فما هو هذا الاختبار ؟

...

الاختبار الديني هو حالة اتصال الانسان بالله ، والتقاء الانسان الشخصي ، بالله، في اعماق داخلية شخصية الانسان.

فهو اختبار يدور بكامله في داخل الانسان ، في حياته الروحية ،في اعماق نفسه .

يتصل الانسان بالآخرين ،مثلاً، اتصالا داخلياً في اعماق نفسه؛ لكن هذا الاتصال يفترض الاتصال الخارجي ايضاً كشرط ضروري ، بالنسبة الى « ثنائية » الاخرين كبشر ، ووضعهم المزدوج ، في داخليتهم وخارجيتهم . واما الله فهو روح مجردة ؛ والاتصال به انما هو بالتالي اتصال روحي مجرد ،لا يتضمن اي نوع من الخارجية .

...

وهذه الصلة بالله هي الصدى للهفة الكبرى القائمة في نفس الانسان ، والتي هي محور انسانيته، ومصدر كل عمل يعمله، وكل انفعال يعانيه : صدى الحنين الذي يدور في اعماق الشخصية : الحنين « للآخر » .

ففي عزلة الانسان ووحدته لهفة صارخة تتطلب الاتصال. وفي وحشة الانسان حنين الى اللقيا... وفي محدودية الانسان حنين الى الكمال ... وفي مخلوقية الانسان حنين الى

الخالق ... وفي طبيعة الانسان كانسان حنين الى الله !

هذا الحنين هو الذي نجده ، في اشكال محدودة ، في حنين الانسان الى الصديق ، والمحب ، والمعين ... وهو هو الذي يتجلى ، في شكله المطلق ، في لهفة الانسان الى الله ، صديقاً ومحباً ومعيناً في آن واحد ...

هذا الحنين هو الذي تعكسه ، في انسانية الانسان ، وحشة كئيبة ترافق كل لحظة من لحظات حياته ، وعزلة تفصله عن العالم في انفراد شخصي سحيق الاغوار ... وهو الذي يشبعه الاتصال ، في المحبة والعطف والصداقة والتفاهم.

وانسانية الانسان ، اذ تنطوي على العزلة والوحشة والمحدودية ، فانما هي تنطوي حتما ، بالتالي ، على اللهفة للاتصال واللقيا والمحبة .

...

هذه الصلة بالله ، التي تقوم في اعماق داخلية الانسان ، فتشبع العزلة النهمة الى الاتصال ، والوحشة المتلهفة للقيا — تتجلى في شعور بهيج « بحضرة » الله ووجوده في كيان الانسان : شعور اين منه شعور الانسان البهيج بلقياه لمن يحب ، واتصاله بالصديق ! شعور يلقي على حياة الانسان بكاملها ضياء بهيجاً من الاتصال الذي يحطم الوحشة ، واللقيا التي تدك اسوار العزلة !

وهـــذه الصلة بالله تتجلى في الفرح الداخلي والاكتفاء

الكياني ، فرح ونشوة يهيمنان على كيان الانسان ، فيقضيان على الكآبة المخيمة على حياته ، ويبددان التنغص الذي يرافق انسانيته في مجال عزلتها ووحشتها !

وهذه الصلة بالله تتجلى في الشعور بالاستقرار الوجداني، والاطمئنان الداخلي ، الذي يبدد المخاوف ، ويقضي على اليأس ، ويزيل شعور الانسان بالنقص والخوف والتحسب!

وهذه الصلة بالله تتجلى في الشعور بالصفح والغفران ، بعد ذلة في الشر ، وانغماس في الخطيئة ، ووخز في الضمير ، والم يرافق ادراك الانسان المحتم لانخفاضه عن المستوى الذي يليق به كانسان مدعو لتحقيق اسمى مراتب الانسانية !

هذه الصلة بحضرة الله ، تتجلى في التسبيح والحمد ، تنبثقان عن شعور وجداني اصيل بمحبة الله وخيره وقوته ، ونشوة بهذا الادراك ، واعتزاز به ...

هذه الصلة بالله تتجلى في الصلاة — همسة تتمتم بها روحه في اعماقه ، وحديثاً يدور بين الانسان والله في هنيهة لقياهما...

هذه الصلة بالله تتجلى في الطهارة — حالة تبلغها روح الانسان وقد شاهدت الله ، ووقفت في حضرته على حقيقتها ، ونعمت بنعمة الغفران ، وتمتعت بعون المحبة ، واستنارت بضياء الارشاد ؛ تبلغها روح الانسان وقد اعادها الله الى قوتها الدفينة وخيرها الاصيل ووضعها الصحيح !

هذه الصلة بالله تتجلى في المحبة تشع من لحظة اللقيا ،

فتغدو لحياة الانسان دستوراً ؛ ولتصرفاته سنة ، اقوى من الشرائع والفرائض والقوانين — فاذا بالمحبة ينبوع داخلي يتدفق منه الخير والحسنى والخدمة والتضحية ، ويتبدد من طريقها الشر والالم والنقمة والكراهية ...

هذه الصلة بالله على وفرة الوانها ، وتعدد اشكال تجليها ، هي الدين في اصدق معـــانيه — الدين في اصـــالته وفي طبيعته الصحيحة !

وهي ، كما رأينا ، صلة داخلية ، تقوم في اعماق الانسان ، وتتم هناك — لكنها صلة تشع على حياة الانسان بكاملها ، وتكيف هذه الحياة وتصوغها : فاذا بالانسان انسان جديد ، واذا بحياته حياة جديدة ، واذا بكل زاوية من زوايا كيانه قد اصطبغت بلونها ، واستنارت بضيائها ... اذا بالاعمال تنبثق كلها عن ذلك الينبوع الدفاق ، الجاثم في اعماق الداخل ، يكيف الارادة ، ويولد النية ، ويصوغ الرغبات ويطهرها ، ويوحي بالتصرفات والسلوك ، ويدفع الى الاعمال ...

هذه الصلة بالله هي الدين بحقيقته : ان وجدت ، وجد الدين ؛ وان انعدمت ، انعدم الدين ، مهما شبه للانسان به ، ومهما بدا من الانسان من اعمـــال ورسخ في ذهنه من اعتقاد ...

...

وهذه الصلة بالله — وهي الدين باصدق معنى — انما هي صلة

« شخصية » بكل ما في هذه الكلمة من معنى !

فهي صلة شخصية لانهـا تتم في اعماق الشخصية، وتدور في داخلهـا ...

وهي صلة شخصية لانها تكيف حياة الانسان بكاملها ، وتصوغ شخصيته صياغة كاملة شاملة ...

وهي صلة شخصية لانها صلة لا تتعرف الى « الوساطة » وسيلة لتحقيقها : بل يتحتم على الانسان بنفسه ان يحققها في اعماق شخصيته، فلا تفرضها عوامل من الخارج ، ولا تأتي بها قوى خارجة عـن نفس الانسان . فهي صلة خاصة بكل انسان ، ولا تقوم الا نتيجة لمجـاهدة الانسان ونفسه ، وقبوله الله بنفسه . وهي صلة بالتالي لا تتحدر بالوراثة ، ولا تتم بالقسر او الفرض او الارغام، ولا توجدها الوساطة او التدخل يقـوم بها الاخرون. ولا يتعـدى شأن الاخـرين، في تحقيـق هـذه الصلة الشخصيـة، حد التهيئة او التنبيه او الحفز او الالهام : اما انجاز الصلة ، وتحقيق الاختبار ، فلا يتم الا بمجـاهدة شخصية واستسلام شخصي وقرار شخصي !

وهي ، بالتالي ، صلة شخصية ، لانها صلة حرة — والحرية ملازمة للشخصية ، لا تقوم هذه الا بها . فالدين اختبار حر لا يقبل الارغـام او القسر ، ولا يحتمل الكبت . حرية الانسان تتمرد عـلى كل ما يسعى الى الحد منها ! وهي لا

تظهر وتفعل في اية ناحية من نواحي حياته ، بمقدار فعلها في حياته الروحية الاولى والاعمق ، في اختباره الديني !

...

هذا هو الدين بمعناه الصحيح الاصيل : اختبار داخلي ، يقوم في اعماق الانسان ، يوم يلتقي بالله في ثنايا نفسه ، روحاً تلتقي بروح ، روحاً تستسلم لروح ، فتشبع باستسلامها نهماً تنطوي عليه طبيعتها ، وتتمتع باستسلامها بالفرح والبهجة والاطمئنان ، فتتدفق منها المحبة والخير ، وتحقق بذلك حياة لها جديدة حرة ... والدين ، بالتالي ، اختبار شخصي ، وشأن شخصي ، وتحقيق شخصي !

...

-٦-

لكن الدين ، وهذا شأنه ، اذ يتحقق اختباراً حياً داخلياً اصيلاً ، يفعل في حياة الانسان فعلا شاملا ، ويطل من نوافذ وكوى مختلفة .

فلقد رأينا ان داخلية الانسان ، ولئن سبقت خارجيته في القيمة والتحقيق ، فهي لا تنسلخ عن هذه الخارجية ، ولا يمكنها ان تدور بتجرد عنها — بحكم ازدواجية الانسان وثنائيته .

فالانسان ، في طبيعته ، وحدة لا تتجزأ ! وليس اختلاف القوى في الانسان بعامل على تجزئة طبيعته وانسانيته .

ولذلك ، فلا يمكن لاختبار يمر به الانسان في اعماقه ، ويسيطر على داخليته ، ويفعل في قلبه وضميره ، ان ينحصر في ذلك النطاق : وانما يتحتم عليه ان يشع ويفعل في سائر عناصر انسانية الانسان ، في عقله وارادته وفعله وانتاجه .

ولقد سبق لنا ان قلنا ان « التعبير » — وهو عملية نقل ما ينطوي عليه الداخل الى الخارج — انما هو عمل محتم في طبيعة الانسان ، تفرضه اولا طبيعة الانسان الثنائية ، وتفرضه ثانياً طبيعة الاختبارات الداخلية وما تنطوي عليه من تدفق وحيوية يأبيان الحصر ويتلهفان للتعبير والبواح !

فالاختبار الديني — اذ يتم في داخلية الانسان — لايلبث ان يطل على العالم الخارجي من كوى مختلفة ، بل من كافة عناصر انسانية الانسان : يطل على العالم الخارجي من كوى العقل والارادة ، والفعل ، والانتاج .

فلا يلبث الاختبار الديني ان يعبر عن نفسه بالفعل العقلي — فاذا بالعقل يفعل في محاولة فهم هذا الاختبار واسبابه وعناصره ، وتحليله ، ووصفه ... ثم لا يلبث ان يحاول ان يحيطه بتكهناته ، ويحيط به بتصوراته ومقولاته ووسائل فعله ! فاذا بفلسفة الدين ، وباللاهوت وعلم الكلام تنشأ ... واذا بالعقيدة تنمو : وليدة تدخل العقل ومحاولته

استيعاب حقيقة الاختبار الديني .

وواضح ان العقل ، كقوة اصيلة في الانسان ، لا يسعه ان يقف ازاء الاختبار الديني – وهو اعمق اختبار يمر به الانسان – ساكتاً هادئاً .

لكن العقيدة ، وهي وليدة فعل العقل كما رأينا ، ليست في حالتها الصحيحة سوى انبثاق عن الاختبار الديني، ويجب الا تصبح اساساً للاختبار الديني او سبباً لنشوئه وقيامه . وحين يتعدى العقل نطاقه المضروب له ، وحين تصبح العقيدة اساساً وسبباً ، بدلا من ان تكون نتيجة وانبثاقا ، ينمحي الاختبار الديني، وتتكبل حريته ، وتتبدد عفويته ، وتتلاشى اصالته ، ويغدو تطبيقاً مشوهاً وتحقيقاً ممسوخاً لمفهومات عقلية كلية (والكلية من طبيعة العقلية) ، ويبطل كونه اختباراً اصيلاً ناتجاً عن صلة شخصية حية داخلية .

...

ويعبر الدين عن نفسه في الفن – تصويراً او نحتاً او بناء او شعراً او قصة او وصفاً . والدين قد الهم ، في التاريخ ، اروع ما انتجته الروح الانسانية من فن وخلق . لكن الفن ليس سوى تعبير عما يدور في داخل الانسان من حالات . واذا انعدم الاختبار الديني من الداخل ، فعبثاً يحاول الفن التعبير ...

...

ويعبر الدين عن نفسه في الفعل والسلوك والتصرفات . وهذا هو التعبير الاخلاقي للدين .

وطبيعي ان يؤثر الدين في تكييف تصرفات الانسان وسلوكه : لان الاختبار الديني هو الينبوع الاخير الذي تتدفق منه كافة نوايا الانسان ورغباته ، وتتولد منه بالتالي كافة اعمال الانسان وتصرفاته !

لكن الخطر يكمن في الالتباس بين السبب والنتيجة ، بين المصدر وما ينبثق عنه . فاذا كان الاختبار الديني يولد سلوكا معيناً منسجما مع ما ينطوي عليه الاختبار من قيم ، ومع الروح الجائة وراء هذا السلوك – فذلك لا يستعاض عنه بمحاولة فرض سلوك معين دون توفر الاختبار الديني بحد ذاته ! فالخير في الاعمال انما هو خير لان الروح التي تحفز الى العمل ، والنية التي تكيفه ، هي خير : واما التحكم بالعمل – وهو نتيجة – دون النية والروح ، فمعاكسة صريحة واضحة لاسبقية النوايا على الاعمال ، والروح على السلوك !

ولست هنا في مقام بحث تلك العلاقة المعقدة بين النوايا والاعمال : فذلك موضوع يشط بنا بعيداً عن مجرى بحثنا الحالي . وانما ما يجب اقراره ، دفعاً لاي التباس ، هو ان فعل الانسان – بحكم ثنائية طبيعته ، واسبقية الروح الداخلية على الاعمال الخارجية – يستمد قيمته ، خيره او

شره ، لا من شكله ومظهره الخارجيين ، بل من الروح الباعثة اليه ، والنية الدافعة لتحقيقه ! « انما الاعمال بالنيات ! ». فمتى وجد الاختبار الديني ، انبثق الخير من نوايا الانسان حتما . واما محاولة فرض اشكال الاعمال الخيرة ومظاهرها وقوالبها ، دون وجود الاختبار الديني والروح الخيرة كاساس لها وسبب ، فانما هي محاولة خطرة: خطرة لانها تكتفي بالظواهر بدلا من اللب الاصيل ؛ خطرة لانها تحد من الحرية في الارادة (والحد من الحرية شر ، حتى ولو كانت الحرية ستقود الى الشر !) ؛ خطرة لانها تحول الدين من اختبار داخلي اصيل ، الى فرائض ونواه قائمة بحد ذاتها في النطاق الخارجي ؛ وخطرة اخيراً لانها تسخر الدين لمقتضيات الاستقرار الاجتماعي ، فتشوه الدين بحقيقته ، وتولد الالتباس بين الدين وبين الشؤون الاجتماعية الخارجية ، وتعمل على الاكتفاء بالاعمال بدلا من النفاذ الى النوايا والنوازع والروح ، وتحول دون تعمق الانسان في اعماق داخليته ، وغوصه في نفسه لتحقيق الاختبار الديني في داخلها .

ان التعبير الاخلاقي عن الدين ، اذن ، شأن التعبير العقلي ، انما هو انبثاق محتم عن طبيعة الدين ، حيث يتم الاختبار الديني ويتحقق : اما محاولة ايجاد هذا التعبير ، والاكتفاء به بحد ذاته ، والاستعاضة به عن الاختبار الديني

باصالته ، فخطأ يبلغ مرتبة الخطيئة !

• • •

والتعبير الرابع عن الاختبار الديني في النطاق الخارجي هو مـــا تصح دعوته بالتعبير « العبادي » — اي الطقوس والمراسيم العبادية المختلفة التي توافق الدين وتجري جنباً الى جنب معه .

وليس في هذا التعبير ، بحد ذاته ، من خطأ او شر ، اذا كان منبثقـــاً عن الشعور الداخلي الذي يرافق الاختبار الديني ، ونتيجة عفوية له . فكل نشوة يشعر بها الانسان ، لابد ان تعبر عن نفسها باشكال خارجية — بسمة كانت ،ام ايماءة، ام رقصة. فكيف بهذه النشوة الكبرى ، اعمق نشوة يمر بها الانسان ؟

وانما الخطر الخطير في هذا التعبير ، يكمن حين يصبح غاية بنفسه ، وامراً قائمـــاً بذاته ؛ وحين ينقلب من نتيجة عفوية لمـــا يدور في داخل الانسان، الى مؤسسة واشكال وقوالب مفروضة ،في اوقات معينة ،لها مراسيمها وقواعدها وقوالبها ، بقطع النظر عن توفر الباعث اليهـــا في داخل الانسان !

اي ان هـــذا التعبير العبادي ، ما دام تعبيراً تلقائياً عفوياً شخصياً لحالة الفرح والحبور الداخلية ، انما يكون امراً انسانياً طبيعياً : في حين انه ،حين يتحول الى طقوس

جامدة ، مرسومة ، مفروضة من الخارج ؛ وحين تصبح هذه الطقوس غايات بحد ذاتها ، ويكتفي بها الانسان على انها تحتوي على معاني العبادة الكاملة ، والدين الصحيح ؛ وحين يستعاض بها عن اصالة الاختبار – تصبح تشويهاً للدين ، واساءة لا تغتفر لمصير الانسان !

وبكلمة اخرى : حين ينشأ هذا التعبير العبادي ضمن نطاقه الصحيح ، كتعبير خارجي عن حالة داخلية ، تدفع اليه هذه الحالة ، ويحدو به الشعور الذي يرافقها ـ يكون بمثابة رموز ونتائج : في حين انه ، حين يتحول هذا التعبير الى نشاط قائم بذاته ، يبرر نفسه بدلا من ان يستمد تبريره من الحالة الداخلية التي يجب ان تسبقه وتولده ـ فقد انقلب حتما من « الرمز » الى « الصنم » ، وتشوه في نفسه ، وادى الى تشويه الدين ايضاً .

(فالصلاة، مثلا ، حين تنبثق عن شعور الحنين والقرابة الى الله ، في حالة اللقيا ، انما هي لفتة روحية داخلية ، تتم في قلب الانسان ، نحو الله ؛ وهي حديث او مخاطبة او مكالمة عفوية ، بين الانسان والله . وهي ، في مثل هذه الحالة ، قد تنتقل الى حيز التعبير ـ فتنطلق كلمات واستصراخاً ، وتتجسد جثواً وسجوداً ، وقد ترافقها شتى ضروب الحركات الجسدية ، التي يجد العابد نفسه في وضع يدفعه الى القيام بها ... واما اذا اصبحت الصلاة كلمات يحفظها الانسان عن

ظهر قلبه ؛ ويرددها ويكررها في مناسبات معينة ، بقطع النظر عن شعوره بها ، او فهمه معناها ، او كونه في حالة نفسية تدفعه اليها — واذا اقترنت الصلاة بحركات ووقفات معينة يجب ان تؤدى ، ويجب ان ترافق القول — فقد اصبحت عملية الصلاة هي الكل ، وهي الامر المهم ، وقد انسلخت عن وضعها الصحيح ، وتشوهت طبيعتها ، وبطل جوهرها... الصلاة تكون، حين تكون في اعماق الانسان، وحين تنبثق المظاهر الخارجية عن هذه الحالة الداخلية العميقة: اما اذا انحصرت الصلاة في المظاهر الخارجية ، وتجردت عن الحالة الداخلية ، وقامت دون قيام هذه، فقد تلاشى جوهرها، وتشوهت طبيعتها ، ولم تعد صلاة بالمعنى الصحيح على الاطلاق!)

...

وبكلمة اخرى : ان التعبير العبادي عن الدين، كالتعبير الاخلاقي والفني والعقائدي (العقلي) — بل ككل تعبير على الاطلاق — اذا تم بصورة طبيعية ، كنقل الى الخارج لما يجول في الداخل ؛ ورافق الحالة الداخلية — فهو صدى طبيعي لطبيعة الانسان الثنائية ، ولطبيعة الاختبارات الداخلية الوثابة المتلهفة للانبثاق والبواح !(وهو ، في هذه الحالة ، ثانوي بالنسبة للاختبار الديني الاسبق ، وعرضي بالنسبة اليه). انه النتيجة وهي السبب. انه الرمز وهي

المرموز اليه . انه الصدى ، وهي الصوت الاصيل . انه التعبير وهي المعبر عنه . انه اعراض الدين وهي الجوهر والدين الصحيح !

واما اذا انسلخت هذه المظاهر التعبيرية عن الجوهر الاساسي ، واستقلت ، واكتفى بها الانسان ، واهتم بها بحد ذاتها ، وحققها لنفسها ، بدلا من ان يحققها كرموز وصور — فقد استحالت هذه الرموز الى اصنام ، وتشوهت بنفسها ، فشوهت الدين ، وقضت على الاختبار الديني الاصيل ،وقضت بالتالي على المزايا الانسانية الخاصة بالانسان! انها ، آنذاك ، ثورة الخارج على الداخل ! ثورة المظهر على الاساس ! ثورة العرض على الجوهر ! ثورة الصنم ، لا على الرمز فحسب ، بل على المرموز اليه !

وانها لظاهرة عامة في كيان الانسان ، رافقت تاريخه بكامله : ان الاختبارات الداخلية ، متى شحبت الوانها ، وجفت نضارتها ، ونضب معينها ، واقفرت خصوبتها ، وذوت وضمرت ـ تغذت حتما ، بفعل هذه الحالة ، المظاهر الخارجية والاشكال ، ونزعت نحو الاستقلال والتمرد والتشويه : واذا ما حافظ الاختبار الاصيل على خصوبته وثرائه وعفويته واصالته ،احتفظت المظاهر بمركزها ووضعها ، وحيل بينها وبين التمرد بفعل اصالة الاصل وثراء الجوهر !

فهذه الظاهرة تتبدى في الفلسفة مثلا : حين تنضب حيويتها وتذوي نضارتها ، ويخف التعشق للحقيقة الذي يدفع الى نشدانها ، تنحط الفلسفة الى جدل سفسطائي ، غايته التظاهر بالمعرفة دونما معرفة ، وهدفه الظهور دون اشباع النهم الداخلي للمعرفة ... وكذلك الشعر : حين تقفر النفس من الانفعالات والحالات الوجدانية الوثابة ، التائقة للبواح والتعبير ، ينحط الشعر الى كلمات مصفوفه ، متمتعة بالوزن والقافية دون الشعرية الاصيلة ... وكذلك الحب : حين يخف الحنين ويفتر التفاني ، تتغذى المظاهر الخارجية ، كلاماً وافعالا ، وتبرز الشهوات ، ويصبح الحب ظلا باهتاً كئيباً لحقيقته ! والدين ايضاً : حين تخبو شعلة الصلة الداخلية بين الانسان والهه ، يستعيض عنها الانسان بالمظاهر الخارجية ، التي هي ، في واقعها الامثل ، ليست سوى التعبير عن ذلك الاختبار ؛ وهي ، في واقعها الممسوخ ، عمليات قائمة بنفسها ، يكتفي بها الانسان بحد ذاتها .

الدين الصحيح هو الاختبار الديني ، الداخلي ، الشخصي .. وهو بالتالي ما ينبثق عن هذا الاختبار من فعل العقل في العقيدة ، ومن تعبير فني ، ومن تعبير اخلاقي ، ومن تعبير عبادي ... اما اذا انسلخت هذه التعبيرات عن اطار الوضع العام الذي يجعلها ما هي ، ويهبها قيمتها (اي اذا قامت دون قيام الحالة الروحية الداخلية الشخصية) ، فقد

غدا الدين مجموعة اعمـال ونشاطات مبتورة ، مشوهة ، لا قيمة لها ، ولا يتعرف اليها الدين الصحيح .

فمأساة الدين ، اذن ، كما قلنا قبلا (في ص ٤٤) ليست سوى مظهر من مظاهر مأساة الانسان العامة – اي التوتر القائم بين داخليته وخارجيته . واخطاء الدين واخطاره ، التي بدأنا هذا الفصل بالاشارة اليهـا ، ليست سوى وليدة طبيعة الانسان الثنائية ، والخطر الذي يتعرض له الانسان من جراء هذه الطبيعة .

وليس من منقذ من مثل هـذا الوضع ، سوى عودة الانسان دائماً وابداً الى اعماقه – ليختبر حـالاته النفسية باصدق معانيها واعمق اشكال تجليها ، ليكون نفسه الحقيقية دونما زيف او زيغان او تعلق بالاصنام !

– ٧ –

حين يتدنى الدين في مستواه ، وتذوي حيويته الداخلية وتنتعش مظاهره فتتمرد وتتحقق كفايات بنفسها – حين يطغى العرض على الجوهر ، ويتحول الرمز في العرض الى جوهر – يصبح « الدين » متهيئاً لينقلب الى « طائفية » .

بل الاصح ان يقال : حين يتيح الانسان لنفسه ان يختل توازنها ، ولثنائيته ان يزداد توترهـا ، فينفجر في تمرد

المظاهر الخارجية على منبعها الاصيل وسببها الاول - حين يتيح الانسان لخارجيته ان تتغلب على داخليته ، في الدين - يتحول الدين الى طائفية !

فالطائفية هي اكتمال هذه الدورة الانحطاطية في موقف الانسان من الدين ، وهذه العملية التشويهية للدين - حيث يستقل التعبير عـن المعبر عنه ، ويتمرد عليه ؛ وتتحول الرموز الى اصنام ؛ - واستمرارها لدرجة يصبح الدين فيها محض علاقة اجتماعية خارجية ، بدلا من ان يكون حالة شخصية داخلية ذات اثر على كيان الانسان الخارجي !

الطائفيـــة ، اذن ، نتيجة لمجرى انقراضي تقهقري في الانسان ونظرته الى الدين ... انها اكتمال هـذا المجرى ، ووصوله الى نتيجته المحتمة . واذا كنا قد قلنا في ما مضى بان هذا المجرى لا يبدأ الا بعد نضوب معين الدين الاصلي وشحوبه وفقره ، فحري بنا الان ان نستنتج ان الطائفية اذن هي وليدة فقر ديني وشلل في الاختبار الديني الخالص الاصيل..

وعبثاً يحاول انصار الطائفية ان يتذرعوا بالدين سلاحاً لتبرير تعصبهم الطائفي - فالدين من هذا التذرع براء ، لان التعصب الطائفي بحد ذاته دليل على فقر الدين بل تلاشيه من النفوس الخاضعة لهذا التعصب ! وعبثاً يحاول انصار الطائفية ان يستمدوا من الدين عوناً لهم في الدفاع عن موقفهم : -

فانهم انما يلجأون الى الدين وقد فتر من نفوس الجماهير ، والتبس عليهم بما ليس هو ، وتدنى في مستواه ، وابتعد عن جوهره الصحيح !

...

الطائفية تنظر الى الدين بمنظار الخارج ، فترى فيه رابطة اجتماعية بحتة ، وتقيسه بالمقاييس الخارجية المجردة . فالطائفة مجموعة بشر « ينتمون » الى دين معين ! هذه هي الطائفية كما يحددها انصارها . اما الواقع فهو ان « الانتماء » لا يكون خارجياً ، ولا يخضع للمقاييس ! هل « الانتماء » للدين هو القول بعقيدة الدين ؟ (والعقيدة ليست سوى التعبير العقلي للاختبار الديني) ... هل « الانتماء » للدين هو التصرف بوحي تعاليمه الاخلاقية ، وقوانينه ، وسننه ، وشرائعه ؟ (واين هذا من انبثاق السلوك عن الروح المولدة الوثابة في الداخل ؟) ... هل « الانتماء » للدين هو القيام بالطقوس التي تفرضها « مؤسسة » الدين ؟ (والطقوس لا قيمة لها الا اذا انبثقت عن النشوة الداخلية السابقة لها) ... هل « الانتماء » للدين هو الانتساب ، في عرف المجتمع ، في ورقة الهوية او سجلات النفوس ، لدين معين ؟ (ومتى كان الدين خاضعاً لمقاييس اوراق الهوية وتصنيفات سجلات النفوس ؟) ...

ان الدين اختبار شخصي داخلي روحي : والرابطة الدينية هي « رابطة تشابه » اذا قسناها بمقاييس الخارج ؛

ورابطة محبة للجميع ، للبشر اطلاقاً ، اذا قسناها بمقاييس نفسها ، بمقاييس الروح التي تولدها ! ... اما الطائفة فليست سوى تدخل الاعتبارات الخارجية الاجتماعية ، الدخيلة على جوهر الدين وماهيته – تدخلها في الشؤون الدينية الداخلية الشخصية... انها تسخير العالم الداخلي لمقاييس العالم الخارجي ومقولاته ! ... انها تعدي الخارج على حرمة الداخل ! ... انها اضمحلال الحياة الداخلية الخصبة ، في نطاق الاعتبارات الخارجية الجامدة !

الطائفية هي تحويل الدين – وهو شخصي وداخلي – الى مؤسسة ومجتمع : والدين ابداً يأبى هذا التحول ويتمرد عليه .

الطائفية تتناول الانسان منذ ولادته – بل قبل ان يولد : والدين يبزغ ، كاختبار اصيل في اعماق الانسان ، بفعل حريته ، وخلال صراعه مدى حياته ، وآلامه ، وافراحه !

الطائفية تحد ولاء الانسان ، وتربطه بفئة معينة من الناس : والدين يأبى الا ان يكون رسالة خير وحب للناس اجمعين ، كنتيجة للحب الاسبق الذي يدور في نفس الانسان لله ، مصدر الكون وخالق الناس !

الطائفية تستند الى التعبير الخارجي للدين ، وتسعى الى اكمال استقلاله عن الاختبار الديني الاصيل : والدين يأبى

ان يكون ، الا اذا كان اختباراً سابقاً للتعبير عن نفسه ، اختبـــاراً هو الذي يهب التعبير قيمته ، وهو الذي يجعل التعبير ما هو ، اي يجعله « تعبيراً » !

...

-٨-

ما دمنا قد وصلنا الى هذا الحد من البحث ، فلنعد الى المجرى الذي اتبعناه حتى الان ، ملخصين :

ليست الطائفية في المقام الاول سوى وجه من اوجه مأساة الدين ، اي مأساة تحوله عن حالته الصحيحة ومعنـاه الاصيل ، وانقلابه الى حالة مشوهة ، واقتباسه معنى مدسوساً . وهذه المأساة ، بدورها ، هي وجه من اوجه مأساة الانسان العامة : اي ثنائيته ، التي تضعه دائماً وابداً في خطر طغيان الناحية الخارجية منه على الناحية الداخلية .

والدين ، في جوهره ، حالة من الاختبار الداخـــلي ، الروحي ، الشخصي – هي حالة الاتصال بالله – لا تلبث ان تعبر عن نفسها في عقل الانسان وفنه واخلاقه ونشاطـــه العبادي . لكن هـــذا التعبير ، المختلف الالوان ، اذا استقل عن الحالة التي تولده ، وتمرد عليهـــا ، استحال الى اصنام لا يتعرف اليها الدين الصحيح .

واذا استمر هذا المجرى الانحطاطي - المتولد عن فقر الاختبار الديني الاصلي ، والمؤدي الى افقاره بشكل متزايد - فان المرحلة الاخيرة التي يصل اليها حتما ، هي مرحلة تحول الدين الى مؤسسة اجتماعية ورابطة اجتماعية ، هي الطائفة ، يتعصب لها الانسان ، بدلا من ان يكون تعصبه الصحيح لدينه بالمعنى الاصيل ، اي بدلا من ان يستزيد في اختباره الديني عمقاً واصالة ...

...

هذه هي الطائفية في وجهها الاول ، وبالتالي في خطرها الاول . ولكن الطائفية لا تلبث ان تستقر ، حتى تنبثق عنها اخطار اخرى ، ويكون لها وجه آخر : هو وجهها الاجتماعي المدني القومي . واليه سنلتفت في الفصل الثاني ...

الفصل الثاني

المجتمع والطائفية



الفصل الثاني

المجتمع والطائفية

الان وقد انتهينا من عرض وجه الطائفية الاول ، وخطرها الاول (اي صلتها بالدين وبحياة الشخص الخاصة واختباره الداخلي) ، وعالجنا هذا الموضوع باسهاب بالنسبة لحجم البحث ، نظراً لان هذا الوجه من المشكلة اقل اوجه الطائفية وضوحاً ، ولان قسطه بالتالي من الاهتمام في معالجة الطائفية عموماً اقل من قسط الوجه الاخر: نتقدم الى عرض هذا الوجه الثاني ، اي الطائفية في النطاق الاجتماعي ، في المجتمع والامة وبالتالي في الدولة والحياة القومية والمدنية ؛ وخطرها في هذا النطاق .

- ١ -

اذا كان نطاق الطائفية في وجهها الاول هو نطاق الحياة الشخصية ، وقيمها ، وكنوزها ، ورقيها – فالطائفية في وجهها الثـاني تقوم ، كنتيجة للوجه الاول ، في الحياة الاجتماعية ، وشروط تراصها وانسجامها واستقرارها وفلاحها

المجتمع فسحة الانسان للتعاون ، والاشتراك في النشاط والتبادل في الخدمة ، والمساهمة المتبادلة لتأمين شروط حياة الانسان . والمجتمع ، بالتالي ، هدفه الانسان : الشخص نفسه في غاية حياته وكيانه . وشرط المجتمع ، لان يؤدي مهمته التي تمليها عليه طبيعته ، ان تتم دورة الحياة فيه ضمن نطاق الاستقرار والاطمئنان والامن ، وضمن نطاق التسهيلات التي تضمن العمل المشترك للخير العـام . ووسيلة المجتمع لتحقيق هذه الشروط ، في سبيل هذه الغاية ، هي الدولة – وهي جهاز المجتمع لتنظيمه ، والاشراف على الامن فيه والاستقرار وتوزيع العدالة ، وتصنيف العمل المشترك بين المواطنين .

فاذا كانت هذه غاية المجتمع وشروطه ووسيلته ، يكون من اللازم ان تؤسس الحياة الاجتماعية على قاعدتين رئيسيتين : اولاهما ، قاعدة التراص الاجتماعي بين البشر الذين يؤلفون المجتمع – وهي المحبة ، والاخـاء ، والتعاون ، والرغبة في الخدمة ، والاثرة ، والسعي لتامين الخير العام ، خير المجموع .
والثانية ، هي اشتراك افراد المجتمع جميعاً على صعيد عضويته ،

ومساواتهم في الوضع العام بالنسبة للمجتمع – مساواتهم في الحقوق والواجبات .

هاتان القاعدتان هما اساس فلاح المجتمع – بل الشرط الضروري لضمان قيام حياة المجتمع على المستوى اللازم له لكي يحقق الغاية من وجوده .

وبالنسبة للدولة ، تصبح هاتان القاعدتان الاساس الضمني لكل قانون من قوانينها ، وكل نظام من انظمتها – الاساس الذي اذا انعدم او مسه اي اثر من آثار التدخل ، اختل القانون ونظام الدولة ، واختلت حياة المجتمع بكامله .

فالقاعدة الاولى تصبح ، بنظر الدولة ، الولاء لمصلحتها ، والاخلاص لقضيتها ، واحترام كل مواطن لحقوق المواطنين الاخرين ، وقيام كل مواطن بواجباته : وهذا يفترضه القانون كشرط اساسي لوجوده ؛ اذ لولا هذه القاعدة لما كان القانون ولما تمتع بالقيام . وفضلا عن ذلك ، فان القانون بنفسه ، اذ يحدد الحقوق والواجبات في قوالب معينة ، ويحدد الجزاء لمخالفات متضمناته ومنطوقه ، انما يوكل الى الدولة امر تكميل ذلك الشعور الوجداني ، وتلك المناقب الاخلاقية ، التي كان من المفروض فيها ان تنبثق تلقائياً عن ضمائر المواطنين وارادتهم . اي ان القانون ، وبالتالي الدولة ، انما هو تجسيد خارجي للحد الادبي بين الحقوق والواجبات ، وللوازع الادبي والحافز الادبي الذي ينهى عن المنكر ويأمر بالخير ،

وللعقاب الذي يقتضيه، بالضرورة ، زيغان المواطن اللاعتيادي عن منطوق هذه الحدود ...

واما القاعدة الثانية ، فانها تصبح ، بالنسبة للدولة، اساس الرعوية المشتركة ، التي يتساوى فيها جميع المواطنين ، امام القانون والانظمة ، في الدول الراقية . وهي علاوة على ذلك ، اساس وحدة الدولة — تلك الوحدة التي تعبر عنها وحدة السيادة ووحدة التشريع ، وترمز اليها وحدة العلم .

— ٢ —

هذا هو المجتمع ، وشروط حياته ورقيه .

امـــا الطائفية ، في وجهها الاجتماعي ، فانها تدق دفاً هداماً على صرح المجتمع ، بتحطيمها القواعد التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية الصحيحة .

فهي تهدم القاعدة الاولى ، وذلك في ما تدعو اليه من حد الولاء الاجتماعي الذي يجب ان يكنه المواطن لمجتمعه ، والاخوة التي يجب ان تقوم في نفسه نحو مواطنيه عموماً ، كمواطنين — وتوجيه ولاء المواطن نحو فئة معينة جزئية مـــن فئات المجتمع ، هي الطائفة، وتوجيه اخوته وشعوره بالروابط والمحبة نحو ابناء هذه الفئة دون سواهم .

وبهذا العمل ، تؤدي الطائفية الى تفسيخ المجتمع وتجزئة

وحدته ، وشل جهاز حياته ، وخلق فواصل مصطنعة بين ابناء المجتمع ، الذين تدور فيما بينهم حياة اجتماعية واحدة ، وتربطهم مصالح واحدة منبثقة عن هذه الحياة ، ومتأثرة بوحدتها ، وتولد فيهم ارادة واحدة كنتيجة لهذه الوحدة في المصالح – خلق فواصل مصطنعة في حياة المجتمع ، تؤدي الى الجفاء والقلق ، فالعداء ، فالاصطدام !

ان الطائفية ، لهذا السبب ، اذن ، تقضي على وحدة المجتمع ، وتحوله الى مجتمعات متنافرة ، متداخلة في بعضها البعض ، يسودها الجفاء بدلا من التعاون فيما بينها على مصالحها المشتركة ، والعداء بدلا من الوقوف صفاً واحداً في وجه اعداء المجتمع .

• • •

واما القاعدة الثانية ، فتهدمها الطائفية ايضاً في ما تدعو اليه من التمييز بين المواطنين على اساس طوائفهم ، بدلا من المساواة بينهم على اساس رعويتهم المشتركة للدولة الواحدة . اي ان الطائفية تدخل اساساً فاسداً للتمييز بين المواطنين ، ولاحداث التباين في اوضاعهم وفي حقوقهم وواجباتهم . ان هذا العمل لينقض وجود الدولة من اساسه – وليحول الدولة الى مجموعة من الفئات ، فينفي وجود الوحدة والاشتراك ، ويحول دون قيام الانسجام على الاطلاق .

-٣-

عندما تتغلغل الطائفية الى هذا الحد في مجتمع ما، وتفعل في نفوس الشعب، يتأثر حتماً نظـــام الحكم: فيضطر الى مجاراة هذه المصالح المصطنعة الناشئة لدى مختلف الطوائف، والى حفظ التوازن بينها في الحياة السياسة والادارية والمدنية والقضائية.

وابلغ مظهر لهذا: توزيع المناصب الحكومية على اساس النسبة العددية للطوائف، وتمثيل الشعب على اساس طوائفه ايضاً: الامر الذي يحول مبدأ الانتقاء للمناصب الحكومية من الارتكاز على اساس الكفاءة والاهلية والخبرة والنزاهـــة والتجرد، واصطفاء المؤهلين على هذه الاسس مـن صفوف الشعب عـــامة — الى الارتكاز على اساس النسبة العددية للطوائف. وبديهي ان هذا المبدأ، متى استقر كاساس للحكم، ادى الى تغذية العناصر الطائفية، واطلاق العصبية من مكامنها؛ وبديهي ايضاً ان هذا المبدأ ينافي المفهوم الاساسي للحكم، كخدمة للمجتمع يؤديها الاكفاء؛ وبالتالي يؤدي الى شلل الحكم وفساده.

...

ويقترن بهذا، تدخل رجال الدين في شؤون الدولة — الامر الذي قدمنا بحثه في توطئة هذا الكتاب (ص ١١ — ١٣)

ولكن ابلغ اثر لتدخل الطائفية في تشويه الحياة الاجتماعية والسياسية، يتبدى في نشوء الدولة الدينية، او في المزج بين سلطة الدولة والسلطة الدينية.

ولن نعرض هنا لهذا الخطر من ناحيته الدينية، او من حيث منافاته لمعنى الدين الصحيح، كما بسطناه في الفصل الاول من هذا الكتاب: بل سنعرض لهذه الظاهرة الخطيرة فقط من حيث مساسها بالحياة الاجتماعية والسياسية.

ان المزج بين الدين والسياسة، وتأسيس الدولة على اساس الدين، وصبغ الحياة السياسية ونظمها بصبغة دينية معينة، واخضاع الشؤون المدنية لمقتضيات شرع ديني معين — لينافي منافاة مطلقة مبدأ التمييز بين الحياة المدنية الاجتماعية والحياة الدينية الشخصية؛ ينافي مبدأ الحرية في المعتقد وفي اساليب الحياة؛ وينافي مبدأ حقوق الاقليات في التمتع باساليبهم وحقوقهم وواجباتهم التي يقتضيها العرف الاجتماعي المدني.

ان فرض شريعة دين معين على دولة ما — او على مجموعة من البشر لها الحق المطلق في ان تعتقد او لا تعتقد بمعتقدات ذلك الدين، وتتقيد او لا تتقيد بسننه وشرائعه — ليضرب الضربة القاضية على مبدأ الحقوق البشرية، ويهدد تهديداً مباشراً مصلحة الدولة في التراص والانسجام الداخليين، ويغذي

شعور النقمة والتذمر لدى الاقليات .

اما مبدأ فصل الدين عن الدولة – عدا عن كونه مبدأ منسجما كل الانسجام مع طبيعة الدين الصحيحة وجوهره الاصيل – فمبدأ اساسي في كل نظام اجتماعي يقدر له البقاء والاستقرار ، ويتاح له تأمين الغرض المقصود منه كنظام لحياة البشر الاجتماعية . انه شرط الرقي ؛ وانتفاؤه دليل على مدى التقهقر السائد في المجتمع الذي ينتفي منه ! وحكم التاريخ واضح وصريح !

...

وان الدعوة اليوم الى اشادة نظم سياسية دينية ، وتأسيس دول تستند الى دين معين « كدينها الرسمي » ، لتدل ، بمقدار نجاحها ، على مدى تأخر الشعب الذي يقبل بمثل هذه الدعوة ، ويناصرها – التأخر لا في مفهومه للدولة المدنية الراقية فحسب ، بل في مفهومه للدين الراقي ايضاً .

وان انتشار مثل هذه الدعوة لهو المرحلة الاخيرة من مراحل انتشار الطائفية واستقرارها في حياة المجتمع ، والخطر الابلغ من اخطارها ...

الفصل الثالث

العلاج



الفصل الثالث

العلاج

-١-

لقد عرضنا حتى الان لوجهين من اوجه الطائفية ، واستنتجنا الاخطار الناجمة عنها في كل نطاق من هذين .

فيتلخص مما مر : ان الطائفية خطر على الدين ، وخطر على المجتمع والدولة .

لكن بسط الخطر وتحليله لا يكفي . بل يقتضي على الباحث في خطر كهذا ان يحلل اساليب العلاج فضلا عن اظهار اوجه الخطر .

وكما مر بنا في توطئة هذا الكتاب (ص ٢١ و ٢٢) ، ان الخطر في الطائفية لايكمن فقط في مناصرتها والدعوة لها ، بل يكمن ايضاً في الخطأ في فهمها ،وفي الشطط في اساليب معالجتها .

فلنعرض ،في البدء ، لبعض الاخطاء السائدة في اساليب علاج الطائفية .

(١) ان الخطأ الاول في معالجة الطائفية هو النظر اليها كخطر اجتماعي بحت ، وحصر مكافحتها في النطاق الاجتماعي : في حين ان نقطة الابتداء في البحث الذي يدور عليه هذا الكتاب ، هي ان الطائفية ليست في المقام الاول خطراً اجتماعياً ، بل هي بالدرجة الاولى خطر ديني ، وتشويه لطبيعة الدين وجوهره الصحيح .

(٢) والخطأ الثاني في معالجة الطائفية هو الدعوة الى انشاء نظام لاديني ، وتأسيس الدولة اللادينية ، بمعنى الدولة المعادية للدين ، - الفارضة على المجتمع فلسفة الحادية معينة ، الواقفة في وجه الحياة الدينية . فاذا كانت الدعوة الى الدولة الدينية دعوة خطرة منافية لمبدأ الحرية الدينية ومبدأ الدولة المدنية الراقية ، فان الدعوة الى الدولة المعادية للدين دعوة خطرة منافية للمبدأين عينهما ايضا .

(٣) والخطأ الثالث في معالجة الطائفية هو الاكتفاء بالدعوة الى الغاء الطائفية من القوانين والانظمة ، والتقاعس عن معالجتها في مجثمها الاول – في نفوس المواطنين .

ان الطائفية ، كداء مستقر في النفوس ، جاثم في الضمائر ، لا يمكن معالجتها معالجة صحيحة في الغاء المظاهر الطائفية من القوانين فحسب : بل يجب معالجتها في النفوس جنباً الى جنب مع ، بل قبل ، الغائها من الانظمة والقوانين. ان القانون هو مقياس التطور الفكري والمدني والاجتماعي

في الشعب : فاذا كان الشعب في حـــالة متأخرة متقهقرة ، وكانت مفاهيمه مشوشة مبلبلة ، ونفسيته مريضة ، تحتم على تشريعه وادارته ان تجاري ، الى حد بعيد ، حالته النفسية والاجتماعية . وان محاولة الغاء هذه المظاهر من القــانون قبل استئصالها من النفوس ، لمعاكسة لمجرى التطور الصحيح – ذلك المجرى الذي يقتضي تسبيق المعالجة النفسيه عـــلى المعالجة القانونية .

ولهذا ، فان المكافحة المجدية للطائفية لتتطلب حتما تربية واعية شاملة ، وتوجيها صحيحاً صائباً ، ومؤسسات اجتماعية يتمرس المواطنون فيها على الحيـــاة المدنية الراقية تمرساً اختبارياً ـ جنباالى جنب مع الاجراءات القانونية الاصلاحية الجريئة .

وان مسؤولية مكافحة الطائفية ، في المقـــام الاول ، لمسؤولية ملقاة على عاتق كل مواطن ، ليبدأ في اصلاح نفسه ومجاهدتها ، والتغلب على عناصر الفساد والتشويه فيها .

-٢-

اما المكافحة الصحيحة للطائفية – في النفوس اولا ، وفي النظم ثانياً – تلك المكافحة التي تفرضها طبيعة الطائفية من جهة ، وطبيعة الدين والدولة من جهة ثانية – فيجب ان

تجري بناء على البرنامج التالي :

(١) ليعد المواطن الى نفسه، الى اعماق نفسه الداخلية، يغذي اختباراتها ، ويتعمق في اصالتها ، ويحفز كنوزهـا الدفينة للاثمار والتجلي . وليجدد حياته الدينية ، في خصوبتها وثرائها . وليحقق نفسه في اصالتها وعمقها !

ان الحياة التي يعانيها الانسان في العالم الحديث - حيث تطغى عليه المـادية والميكانيكية والتنظيمات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية - هي حياة « لا شخصية » الى ابعـد حدود اللاشخصية . انها حياة مجدبة فقيرة ، يتيه فيها الانسان ، ويبتعد فيها عن نضارة حياته وعفوية اختباراته ، وينسلخ فيها عن معين القوى والقيم الوثابة الكامنة في صميم نفسه . انها حياة شطت بها مقتضيات «العيش» بعيداً عن قيم «الحياة» : حياة سيطرت فيها « الحضارة » على الثقافة وعلى الكيان الشخصي الثري . انها حياة طغت فيها مقولات « الكم » على مقولات « النوع » « والقيمة » . وان نداء الاعماق - ذلك النداء المنبثق عن صميم انسانية الانسان ، الهاتف في آذانـه ، رغم ضجيج الآلة وصخب الحرب والتكالب على اللقمة - هو نداء القيم والروح والحيـاة الشخصية الخصبة والانتاج الثقافي الخلاق .

وضمن هـذه الدعوة - دعوة الانسان الى العودة الى انسانيته - تقوم دعوة الانسان للعودة الى ذلك الاختبار

الداخلي الذي يشكل اكثر اختبارات الانسان انسانية .

فاذا عاد الانسان الى نفسه الداخلية ، يجاهدها ويحفز قواهـا ويهذب اختباراتها ويتيح لقيمها ان تتجلى وتبرز وتنطلق - واذا عاد الى احترام داخليته وحريتها واصالتها وعفويتها ، وانقذها مـن براثن الشكليات والتقييدات والاصنام - واذا واجـه وحشته ووحدته وعزلته بجرأة ، وكبرياءه وخطأه بمجاهدة ، واصغى الى الصوت الخـافت المستمر ، الهاتف في اذنيه ، ليعرفه ، في اعمـاق روحه ، بالروح الكبرى الكامنـة وراء الكون : - اذا فعل كل ذلك ، فقد وقف الى جانب داخليته في وجه كافة النزعات المتألبة عليها مـن الخارج ، لتغرقها في لججها ، وتمتص حيويتها ، وتجمدها بقوالبها الميتة ... ووقف بالتـالي الى جانب الاختبار الديني الصحيح ، في وجه تشويهات الطائفية واصنامها الزائفة الآثمة ...

* * *

(٢) ولينم الانسان في نفسه شعوراً مدنياً قوميـاً سليماً ، لا يتعرف الى الحواجز المصطنعة التي تضعها الطائفية في وجه الحياة الاجتماعية الطليقة الراقية ، لتعرقل سيرها وتقدمها .

لينم هذا الوعي القومي ، والولاء القومي المنبثق عنه ، وليتفاعل مع غيره بالروح التي يمليها هذا الوعي .

وقوام هذا الوعي : محبة واخوة ، تتجه فعالة حية نحو المواطن كمواطن ونحو الانسان كانسان ؛ وصعيد واحد من رعوية الدولة ، يلتقي عليه كافة المواطنين ؛ وتعاون في سبيل مصلحة المجموع ، مع المجموع على السواء ؛ وولاء للمجتمع ، الموحد الحياة ، فالمصلحة ، فالارادة .

...

(٣) فاذا تم هذا الوعي المزدوج – وانبثق في المجتمع جيل من المواطنين : يحيا حياته الروحيـــة والاجتماعية في اصالتهما ، وضمن الشروط الضرورية لكل منهما ، تلك الشروط التي تمليها طبيعة كل منهما ، المتميزة الخاصة – فيجب عندئذ اشادة نظام اجتماعي سليم ، خال من كافـــة المساوىء التي تعرقل قيام المجتمع المدني الراقي : وذلك وفقاً للمبادىء الاتية :

أ – فصل الدين عن الدولة ، والدولة عن الدين ، وابعاد فكرة الدولة الدينية ، او الدولة التي تستمد تشريعها من تعاليم دين معين وسننه .

ب – منع رجال الدين من التدخل – بصفتهم رجال دين ، وباسم طوائفهم – في شؤون الاجتماع او الاقتصاد او القضاء او السياسة ؛ وانقاذ مقدرات المجتمع من ايدي من لا حجة لهم في التدخل سوى مركزهم الديني وتمثيلهم الديني .

ج – وضع تشريع مدني ، وتعميم القضاء والمحاكم المدنية على كافة المواطنين على السواء ... وتحديد حقوق كل مواطن

وواجباته بناء على مقتضيات الحياة المدنية وضروراتها ...
والحؤول دون تدخل الاعتبارات المذهبية ، المنتسبة الى
الدين ، في حياة المواطنين الخاصة والعـــامة ، ان بسلطة
القانون والدولة ، او باية وسيلة اخرى للقسر والارغام .

د ـ اتاحة الحرية الدينية لكل مواطن على السواء : ـ
فلكل مواطن الحق في ان يعتقد بما يشاء ، ويدعو للدين
الذي يشاء ، في حمى القانون ، وضمن حدود اللياقة والآداب
الاجتماعية والامن العام .

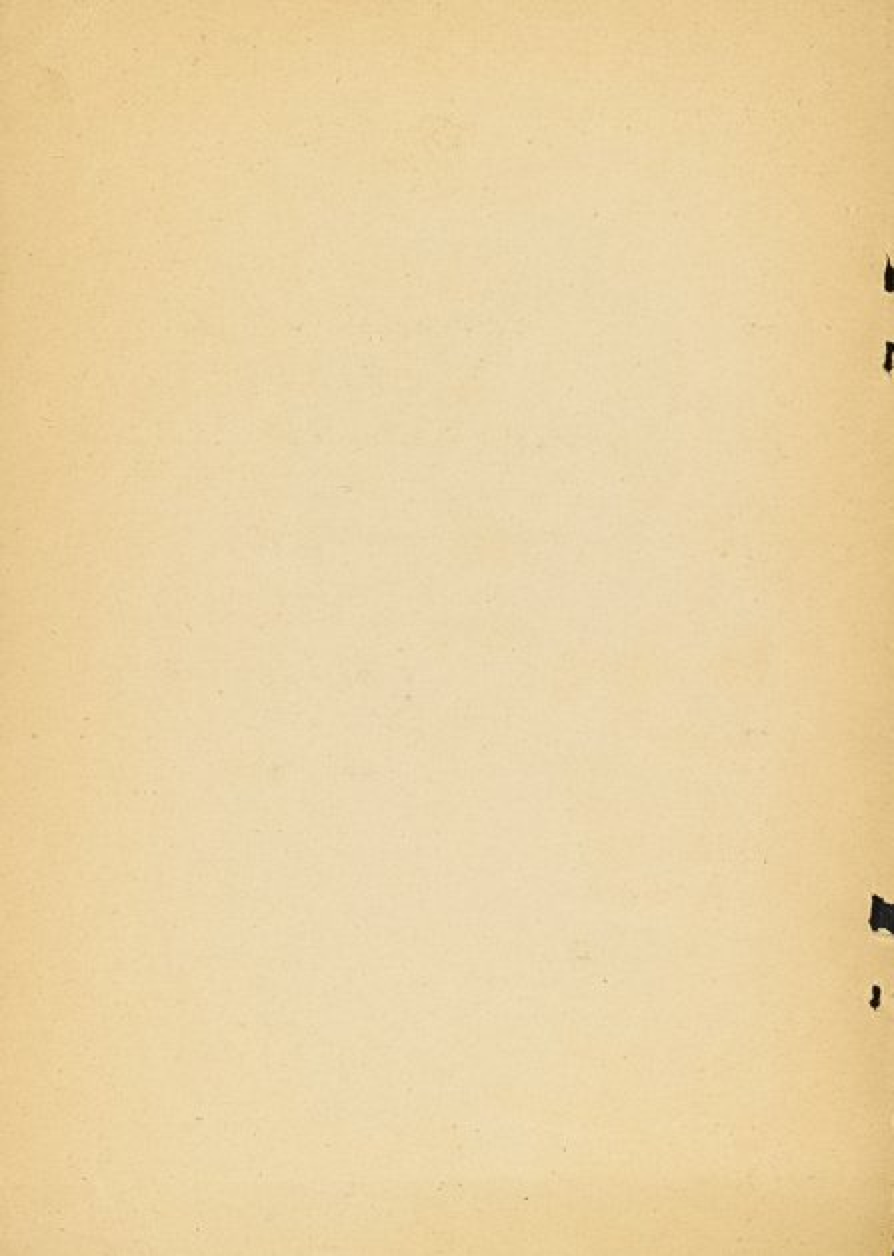
ﻫ ـ الغاء كافة النصوص الطائفية من القوانين ـ وتوزيع
المناصب الحكومية والمقاعد التمثيلية على اساس الكفاءة ،
لا على اساس النسبة العـددية للطوائف . وتخليص الدولة
نهائياً من كل اثر من آثار المصالح الطائفية التي توجه سياستها .

و ـ الغاء المنظمات الطائفية والمؤسسات التي من شأنها
اذكاء العصبية الطائفية ، وحصر الولاء الاجتماعي في فئة دون
فئة ـ وبالتالي اثارة العداء والكراهية والفتن والاصطدامات .

ـ انتهى ـ



هيكل البحث



طبع في « مطبعة الثبات » ، بيروت . فبراير – ١٩٤٧
الثمن : « ٧٥ » غ.ل.س.